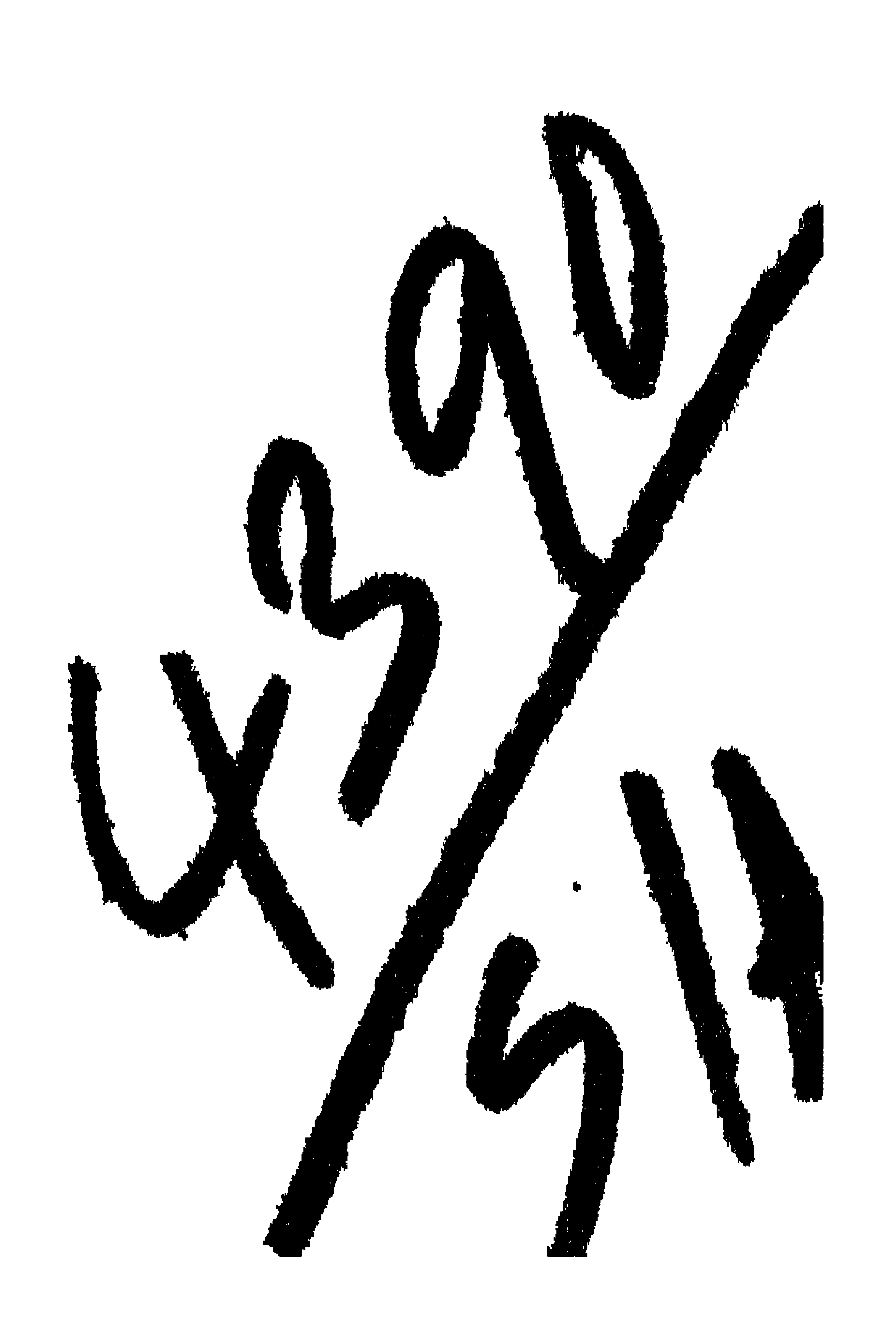


الى [illegible] الطرقات * انى بعد ان تأملت تأملا طويلا فى اسباب تقدم الامم وتأخرها جيلا فجيلا * مستندا فى ذلك الى ما امكن تصفحه من التواريخ الاسلامية والافرنجية * مع ما حرره المؤلفون من الفريقين فيما كانت عليه وآلت اليه الامة الاسلامية وما يؤول اليه امرها فى المستقبل * بمقتضى الشواهد التى قضت التجربة بتحقيقها * الجأت الى الجزم بما لا اظن عاقلا من رجال الاسلام يناقضه * او ينهض له دليل يعارضه * من انا اذا اعتبرنا تسابق الامم فى ميادين التمدن * وتحزب عزائمهم على فعل ما هو اعود نفعا [illegible] * [illegible] الا ان نميز ما يليق بنا * على قاعدة محكمة [illegible] الاوربية احوالا وليس [illegible] لا سيما من حيث [illegible] [illegible] ثم ان [illegible] فى هذه الازمان * من الوسائط [illegible] لاجل [illegible] او [illegible] [illegible] * [illegible] * [illegible] [illegible] فى [illegible] خصوصية [illegible] نفسه * [illegible] [illegible] مطلوب لسائر بنى جنسه * [illegible] * [illegible] المناهضة فى [illegible] * [illegible] الشريعة الاسلامية [illegible] * [illegible] اساس [illegible] * [illegible] * [illegible] نرى بعض علماء الاسلام المركول [illegible] الاحوال الوقتية فى تنزيل الاحكام * [illegible] [illegible] * [illegible] الخارجية

عليه * ولا يخفى ان ذلك من أعظم العوائق * عن معرفة ما يجب اعتباره على الوجه اللائق * أفيحسن من ساسة الامم الجهل بامراضها * أو صرف الهمة الى اقتناء جواهر علوم مجردة عن اغراضها * كأنه يسوغ لنا الجهل بذلك من بعض رجال السياسة * ولتجاهل بعضهم رغبة في انغلاق بابه * فلذلك هجس ببالى * ما استذكيت لاجله ذهنى * من انى لو جمعت بعض ما استنتجته متدينين باعمال الفكر والروية * مما شاهدته اثناء اسفارى لبلدان اوروباويه * التى ارسلنى اليها بعض دولتها لفخامة الطرد الرفيع الاسمى * والكهف المنيع الاحمى جناب ولى النعم * وزكى الاخلاق والشيم * من لم تزل مزاياه كاسمه صادقه * ولسنة الايام بالثناء عليه ناطقه * لم يخل سعي من فائده * خصوصا اذا صادف افئدة على حماية بيضة الاسلام متعاضده * واهم تلك الفرائد عندى * التى هى فى هذا التاليف مناط قصدى * تذكير العلماء الاعلام * بما يعينهم على معرفة ما يجب اعتباره من حوادث الايام * وايقاظ الغافلين من رجال السياسة وسائر الخواص والعوام * ببيان ما ينبغى ان تكون عليه التصرفات الداخلية والخارجيه * وذكر ما تتأكد معرفته من احوال الامم الافرنجيه * خصوصا من لهم بنا مزيد اختلاط * وشديد علاقة وارتباط * مما اوجبوا به من صرف الهمم * الى التعرف باحوال سائر الامم * واستقبلوا به ذلك طى مقاصد الكره الذى الحق شانها بالامم * فجمعت ما تيسر بعون الله من مستحدثاتهم المتعلقة بسياستى الاقتصاد والتنظيم * مع الاشارة الى ما كانوا عليه فى العهد القديم * وبيان الوسائل التى ترقوا بها فى سياسة العباد * الى الغاية

الغاية القصوى من عمران البلاد * كما اشرت الى ما كانت عليه امة الاسلام المشهود لها حتى من مورخى اروبا الاعيان * بسابقية التقدم فى مضمارى العرفان والعمران * وقت نفوذ الشريعة فى احوالها * ونسج سائر التصرفات بمنوالها * والغرض من ذكر الوسائل التى اوصلت الممالك الاوروباويه * الى ماهى عليه من المنعه والسلطة الدنيويه * ان نتخير منها ما يكون بحالنا لائقا * ولنصوص شريعتنا مساعدا وموافقا * عسى ان نسترجع منه ما اخذ من ايدينا * ونخرج باستعماله من ورطات التفريط الموجود فينا * الى غير ذلك مما تتشوف اليه نفس الناظر فى هذا الموضوع * المحتوى من الملاحظات النقلية والعقلية على ما نشره بطى فصوله يضوع * وسميته اقوم المسالك * فى معرفة احوال الممالك * مرتبا له على مقدمة وكتابين يشتمل كل منهما على ابواب * وبهداية الله نستوضح مناهج الرشد والصواب * والجرى فى هذا المجال وان كان فوق طاقتى * لكن اغضاء الفضلاء مامول فى جنب فاقتى * وصدق النيه * كافل ان شاء الله تعالى ببلوغ الامنيه *

(المقدمه)

لما كان السبب الحامل على الشئ متقدما عليه طبعا ناسب ان نقدمه وضعا ولم نكتف بالايماء فى الخطبة الى ما دعانا لجمع هذا التاليف بل رأينا من المهم ان نعود الى ايضاحه هنا ونبنى عليه ما اردنا ايراده فى المقدمه فنقول ان الباعث الاصلى على ذلك امران آيلان الى مقصد واحد احدهما اغراء ذوى الغيرة والحزم من رجال

الرياسة والعلم بالقياس مانمكنهم من الوسائل الموصلة الى حسن حال الامة الاسلامية وتنمية اسباب تمدنها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان وتمهيد طرق الثروة من الزراعة والتجارة وترويج سائر الصناعات ونفي اسباب البطالة وأساس جميع ذلك حسن الامارة المتولد منه الامن المتولد منه الامل المتولد منه اتقان العمل المشاهد في الممالك الاوروباويه بالعيان وليس بعده بيان ثانيهما تحذير ذوي الغفلات من عوام المسلمين من تماديهم في الاعراض عما يحمد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا لمجرد ما انتقش في عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغي ان يهجر وتآليفهم في ذلك يجب ان تنبذ ولا تذكر حتى انهم يشددون الانكار على من يستحسن شيأ منها وهذا على اطلاقه خطأ محض فان الامر اذا كان صادرا من غيرنا وكان صوابا موافقا للادلة لاسيما اذا كنا عليه واخذ من ايدينا فلا وجه لانكاره واهماله بل الواجب الحرص على استرجاعه واستعماله وكل متمسك بديانة وان كان يرى غيره ضالا في ديانته فذلك لا يمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن في نفسه من اعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية كما تفعله الامة الافرنجية فانهم ما زالوا يقتدون بغيرهم في كل ما يرونه حسنا من اعماله حتى بلغوا في استقامة نظام دنياهم الى ما هو مشاهد وشأن الناقد البصير تمييز الحق بمسبار النظر في الشيء المعروض عليه قولا كان او فعلا فان وجده صوابا قبله واتبعه سواء كان صاحبه من اهل الحق او غيرهم فليس بالرجال يعرف الحق بل بالحق تعرف الرجال والحكمة ضالة المؤمن ياخذها حيث وجدها

وإما أشار سلمان الفارسي رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن عادة الفرس أن يطوقوا مدنهم بخندق حين يحاصرهم العدو اتقاء من هجومه عليهم اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم برأيه وحفر خندقا للمدينة في غزوة الاحزاب عمل فيه بنفسه ترغيبا للصحابة وقال سيدنا علي كرم الله وجهه لا تنظر الى من قال وانظر الى ما قال واذا ساغ للسلف الصالح اخذ مثل المنطق من غير أهل ملتهم وترجمته من لغة اليونان لما رأوه من الآلات النافعة حتى قال الغزالي من لا معرفة له بالمنطق لا يوثق بعلمه فاي مانع لنا اليوم من أخذ بعض المعارف التي نرى انفسنا محتاجين اليها غاية الاحتياج في دفع المكائد وجلب الفوائد * وفي سنن المهتدين للعلامة الشيخ المواق المالكي ما نصه ان ما نهينا عنه من اعمال غيرنا هو ما كان على خلاف مقتضى شرعنا اما ما فعلوه على وفق الندب أو الايجاب او الاباحة فانا لا نتركه لاجل تعاطيهم اياه لان الشرع لم ينه عن التشبه بمن يفعل ما اذن الله فيه وفي حاشية الدر المختار للعلامة الشيخ محمد بن عابدين الحنفي ما نصه ان صورة المشابهة فيما تعلق به صلاح العباد لا تضر على انا اذا تأملنا في حالة هؤلاء المنكرين لما يستحسن من اعمال الافرنج نجدهم يمتنعون من مجاراتهم فيما ينفع من التنظيمات وتوابعها ولا يمتنعون منها فيما يضرهم وذلك انا نراهم يتنافسون في الملابس والاثاث والمساكن ونحوها من الضروريات وكذا الاسلحة وسائر الآلات الحربية والحال ان جميع ذلك من اعمال الافرنج ولا يخفى ما يلحق الامة بذلك من الشين والخلل في العمران وفي السياسة اذ الشين في الاحتياج للغير في غالب الضروريات الدال على تأخر الامة في

المعارف واما خلل العمران فبعدم انتفاع صناع البلاد باصطناع
نتائجها الذى هو أصل مهم من اصول المكاسب ومصداق ذلك
مانشاهده من ان صاحب الغنم مناومستولد الحرير وزارع القطن
مثلا يقتحم تعب ذلك سنة كاملة ويبيع ماينتجه عمله للافرنجي
بثمن يسير ثم يشتريه منه بعد اصطناعه في مدة يسيرة باضعاف ماباعه
به وبالجملة فليس لنا الآن من نتائج ارضنا الا قيمة موادها المجردة
دون التطورات العملية التى هى منشا توفر الرغبات منا ومن
غيرنا ثم اذا نظرنا الى مجموع مايخرج من المملكة وقايسناه بما
يدخلها فان وجدناهما متقاربين خف الضرر واما اذا زادت قيمة
الداخل على قيمة الخارج فحينئذ يتوقع الخراب لامحالة واما الخلل
السياسى فان احتياج المملكة لغيرها مانع لاستقلالها وموهن لقوتها
لاسيما اذا كان متعلق الاحتياج الضروريات الحربية التى
لو تيسر شراؤها زمن الصلح لايتيسر ذلك وقت الحرب ولو باضعاف
القيمة ولاسبب لماذكرناه الا تقدم الافرنج فى المعارف الناتجة عن
التنظيمات المؤسسة على العدل والحرية فكيف يسوغ للعاقل
حرمان نفسه مماهو مستحسن فى ذاته ويستسهل الامتناع عما به قوام
نفعه بمجرد اوهام خيالية واحتياط فى غير محله ومما يحسن سوقه هنا
قول بعض المؤلفين من الاوروباويين فى السياسات الحربية ان
الممالك التى لاتنسج على منوال مجاوريها فيما يستحدثونه من
الالات الحربية والتراتيب العسكرية يوشك ان تكون غنيمة لهم
ولو بعد حين ونص التراتيب الحربية لانها موضوع كتابه والا فالواجب
مجاراة الجار فى كل ماهو مظنة لتقدمه سواء كان من الامور العسكرية

او

أومن غيرها ومما يؤيده ما قررناه قوله صلى الله عليه وسلم لعاصم بن ثابت من حديث من قاتل فليقاتل كما يقاتل و يوضح معناه ما تضمنته وصية الصديق لخالد بن الوليد رضى الله عنهما حين بعثه لقتال المرتدين فقال ياخالد عليك بتقوى الله والرفق بمن معك الى ان قال والخوف عند أهل اليمامة فاذا دخلت بلادهم فالحذر الحذر ثم اذا لاقيت القوم فقاتلهم بالسلاح الذى يقاتلونك به السهم للسهم والرمح للرمح والسيف للسيف قلت ولو ادرك هذا الزمان لابدل ذلك بمدفع الشخان ومكحلة الابرة والسفينة المدرعة ونحوها من المخترعات التى تتوقف عليها المقاومة ولا يحصل بدونها الاستعداد الواجب شرعا الذى يستلزم معرفة قوة المستعد له والسعى فى تهيئة مثلها أو خير منها ومعرفة الاسباب المحصلة له و بناء على ذلك يقال هنا هل يمكننا اليوم الحصول على الاستعداد المشار اليه بدون تقدم فى المعارف واسباب العمران المشاهدة عند غيرنا وهل يتيسر ذلك التقدم بدون اجراء تنظيمات سياسيه تناسب التنظيمات التى نشاهدها عند غيرنا فى التاسس على دعامتى العدل والحرية اللذين هما اصلان فى شريعتنا ولا يخفى انهما ملاك القوة والاستقامة فى جميع الممالك ولما كان الغرض من هذا الكتاب لايتم الا ببيان احوال البلدان الاورباوية لزم ان نثنى العنان اليه مدرجين فى اثنائه ما يناسب الامة الاسلامية فنقول ان الحالة الراهنة فى ممالك اوربا لم تكن ثابتة لها من قديم الزمان لانها كانت بعد هجوم البرابرة الشماليين وسقوط الدولة الرومانية سنة اربعمائة وست وسبعين مسيحية

على انقاع حال من التوحش والاعتداء والجور آخذة فى حركة السقوط التى هى اسرع من الصعود طبعا ولم تزل فى ربقة الرق لملوكها وكبراء الامم الجائرة المسمين بالنوبليس الى زمن ولاية الامبراطور شارلمان ملك فرنسا ومعظم ممالك اوروبا سنة سبعمائة وثمان وستين فبذل غاية جهده فى اصلاح حال الناس بسعيه فى تنمية المعارف وغيرها ثم بعد وفاته رجعت اوروبا الى غياهب جهالتها وظلم ولاتها كما ياتى تفصيله ولا يتوهم ان أهلها وصلوا الى ما وصلوا اليه بمزيد خصب أو اعتدال فى اقاليمهم اذ قد يوجد فى اقسام الكرة ما هو مثلها أو أحسن ولا ان ذلك من آثار ديانتهم اذ الديانة النصرانية ولو كانت تحث على اجراء العدل والمساواة لدى الحكم لكنها لا تتداخل فى التصرفات السياسية لانها تأسست على التبتل والزهد فى الدنيا حتى ان عيسى عليه السلام كان ينهى اصحابه عن التعرض لملوك الدنيا فيما يتعلق بسياسة احوالها قائلا انه ليس له ملك فى هذه الدنيا لان سلطان شريعته على الارواح دون الاشباح والخلل الواقع فى ممالك الباپا كبير الديانة النصرانية لامتناعه من الاقتداء بالتراتيب السياسية المعتبرة فى بقية الممالك الاوروباوية دليل واضح على ما ذكرناه وانما بلغوا تلك الغايات والتقدم فى العلوم والصناعات بالتنظيمات المؤسسة على العدل السياسى وتسهيل طرق الثروة واستخراج كنوز الارض بعلم الزراعة والتجارة وملاك ذلك كله الامن والعدل اللذان صارا طبيعة فى بلدانهم وقد جرت عادة الله فى بلاده ان العدل وحسن التدبير والتراتيب المحفوظة من اسباب نمو الاموال

والانفس والثمرات وبضدها يقع النقص في جميع ماذكر كما هو معلوم من شريعتنا والتواريخ الاسلامية وغيرها فقد قال صلى الله عليه وسلم العدل عز الدين وبه صلاح السلطان وقوة الخاص والعام وبه أمن الرعية وخيرهم ومن أمثال الفرس الملك اساس والعدل حارس فما لم يكن له أساس فمهدوم وما لم يكن له حارس فضائع وفي نصائح الملوك ان ولي الامر يحتاج الى ألف خصلة وكلها مجموعة في خصلتين اذا عمل بهما كان عادلا وهما عمران البلاد وأمن العباد

ومن تصفح الفصل الثالث من الكتاب الاول من مقدمة ابن خلدون رأى أدلة ناهضة على ان الظلم مؤذن بخراب العمران كيفما كان وبما جبلت عليه النفوس البشرية كان اطلاق أيدي الملوك مجلبة للظلم على اختلاف أنواعه كما هو واقع اليوم في بعض ممالك الاسلام ووقع بممالك أوربا في تلك القرون عند استبدادملوكها بالتصرف المطلق في عبيد الله من غير تقيد بقانون عقلي لمنافاته لشهواتهم ولا شرعي لعدم وجوده في الديانة المسيحية المبنية على التبتل والزهد في الدنيا كما تقدم وما أشرف بعض ممالكهم على الاضمحلال وسلب الاستقلال الا بسوء تصرفهم الناشئ عن اطلاق أيديهم مع حسن سيرة مجاوريهم اذ ذاك من الامة الاسلامية الناتج عن تقيد ولاتهم بقوانين الشريعة المتعلقة بالامور الدينية والدنيوية التي من أصولها المحفوظة اخراج العبد عن داعية هواه وحماية حقوق العباد سواء كانوا من أهل الاسلام أو من غيرهم واعتبار المصالح المناسبة للوقت والحال وتقديم درء المفاسد على جلب المصالح وارتكاب أخف الضررين اللازم أحدهما الى غير ذلك

ومن أهم أصولها وجوب المشورة التى أمر الله بها رسوله المعصوم صلى الله عليه وسلم مع استغنائه عنها بالوحى الالهى وبما أودع الله فيه من الكمالات فما ذاك الا لحكمة أن تصير سنة واجبة على الحكام بعده قال ابن العربى المشاورة أصل فى الدين وسنة الله فى العالمين وهى حق على عامة الخليقة من الرسول الى أقل الخلق (ومن) كلام على رضى الله عنه لا صواب مع ترك المشاورة ومن الاصول المجمع عليها وجوب تغيير المنكر على كل مسلم بالغ عالم بالمنكرات (وقال) حجة الاسلام الغزالى الخلفاء وملوك الاسلام يحبون الرد عليهم ولو كانوا على المنابر فقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو يخطب أيها الناس من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه فقام له رجل وقال والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا فقال الحمد لله الذى جعل فى هذه الامة من يقوم اعوجاج عمر بسيفه ولاشك ان مثل هذا الامام العادل الشديد فى حماية الدين وحقوق الخلافة لولم ير مساغا من الشريعة لذلك الكلام مع ما فيه من الشدة ما حمد الله عليه بل كان الواجب رده وزجر قائله (وروى) الغزالى أيضا فى كتاب (الامر بالمعروف والنهى عن المنكر) من الاحياء ان معاوية حبس عطاء الناس فقام اليه أبو مسلم الخولانى فقال انه ليس من كدك ولا من كد أبيك ولا من كد أمك فقال معاوية بعد اسكان غضبه بالوضوء صدق أبو مسلم انه ليس من كدى ولا من كد أبى فهلموا الى عطائكم قلت لولا التغيير المشار اليه ما استقام للبشر ملك لان الوازع ضرورى لبقاء النوع الانسانى ولو ترك ذلك الوازع يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد لم تظهر ثمرة وجوب نصبه على الامة لبقاء الاهمال بحاله فلابد للوازع المذكور من وازع له يقف عنده اما شرع سماوى

اوسياسة

أوسياسة معقولة وكل منهما لا يدافع عن حقوقه ان انتهكت فلذلك
وجب على علماء الامة وأعيان رجالها تغيير المنكرات
ونصب الاوربا ويون المجالس وحرروا المطابع فالمغيرون للمنكر فى الامة
الاسلامية تتقدم الملوك كما تتقى ملوك أوربا المجالس وآراء العامة
الناشئة عنها وعن حرية المطابع ومقصود الفريقين واحد وهو
الاحتساب على الدولة لتكون سيرتها مستقيمة وان اختلفت الطرق
الموصلة الى ذلك وما ذكرناه أشار اليه ابن خلدون فى فصل الامامة من
مقدمته حيث قال ان الملك لما كان عبارة عن المجتمع الضرورى
للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار القوة الغضبية
المركبة فى الانسان كانت أحكام صاحبه فى الغالب جائرة عن الحق
مجحفة بمن تحته من الخلق لحمله اياهم فى الغالب على ما ليس فى طوقهم من
شهواته فتعسر طاعته لذلك وتجىء العصبية المفضية الى الهرج والقتل
فوجب ان يرجع فى ذلك الى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة
وينقادون الى أحكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الامم واذا خلت
الدولة عن مثل هذه السياسة لم يستتم أمرها ولا يتم استيلاؤها فاذا كانت
هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت
سياسة عقلية واذا كان فرضها من الله تعالى بشارع يقررها كانت
سياسية دينية نافعة فى الدنيا والآخرة انتهى
(قلت) والنفع المذكور انما يكون تاما ببقائها محترمة بصونها
والذب عن حوزتها بمثل الامر بالمعروف والنهى عن المنكر كما أشرنا
اليه هذا وانا لا ننكر امكان أن يوجد فى الملوك من يحسن تصرفه
فى المملكة بدون مشورة أهل الحل والعقد ويحمله حب الانصاف على

الاستعانة بالوزير العارف النصوح فيما يشكل عليه من المصالح لكن الكون ذلك من النادر الذى لا يعتبر لاستناده الى أوصاف قلما تجتمع فى انسان وعلى فرض اجتماعها ودوامها له تزول بزواله وجب علينا أن نجزم بأن مشاركة أهل الحل والعقد للملوك فى كليات السياسة مع جعل المسؤلية فى ادارة المملكة على الوزراء المباشرين لها بمقتضى قوانين مضبوطة مراعى فيها حال المملكة اجلب لخيرها واحفظ له

وبيان ذلك ان حالة الملوك بمقتضى الطبيعة البشرية لا تخرج عن صور ثلاث لان الواحد منهم اما ان يكون كامل المعرفة والمحبة لخير الوطن قادرا على اجراء المصالح بمراعاة الاصلح أو يكون كامل المعرفة ولكن له اغراض وشهوات خصوصية تصده عن مراعاة المصالح العمومية أو يكون ناقص المعرفة ضعيف المباشرة ومثل هذه الصور الثلاث يعتبر فى الوزير المباشر ولا يخفى ان لزوم المشورة ومسئولية الوزراء فى الصورة الاولى لا يبطل كامل المعرفة عن مقصده الحسن بل يعينه حيث ان اراء الجميع متعاضدة على المصلحة كما انه يسهل دوام الملك فى عائلته ولو كانوا من ماصدقات الصورتين الاخيرتين الواضح فيهما تأكد المشورة والمسئولية لوجوب المعارضة فى الثانية والاعانة فى الثالثة فبذلك يستقيم حال المملكة ولو كان الوالى أسير الشهوات أو ضعيف الرأى كما قال المترجم لتاريخ ستور دمل الانكليزى ان رفعة شان الامة الانكليزية بلغت الغاية فى مدة الملك جورج الثالث الذى كان مجنونا وما ذاك الا بمشاركة اهل الحل والعقد ومسئولية الوزراء لهم وقد يسبق الى بعض الاذهان الضعيفة ان تكليف من تحسن سيرته من الوزراء يجبر به خلل الصورتين الاخيرتين بحيث لا يحتاج لاهل الحل

والعقد

والعقد وهو ظاهر السقوط لان تقديم الوزير للمباشرة وتأخيره عنها بيد الملك ولا يظن ان الملك يقدم من يعلم انه يخالفه مخالفة معتبرة وعلى فرض تقديمه وسيره سيرة مستحسنة فانا نرى ان حال الوزير دائر بين امرين لانه اما ان يوافق الملك وحاشيته على اغراضهم وشهواتهم مرجحا بذلك حظ نفسه . وضرر المملكة في هاته الحالة لا يكاد يخفى . واما ان يخالفهم ويأمر من تحته من المتوظفين بما تقتضيه مصلحة البلاد وحينئذ فمن اين له هذا الحق وبأي ظهير يستظهر على تلك المخالفة خصوصا اذا لم تكن هناك شريعة نافذة تحميه من تحزب حساده الذين غاية املهم اضراره وتعطيل تصرفاته الحسنة المقالة لفوائدهم بكل وجه امكنهم ولو بتنفيذ اذنه على غير مقصوده او تأخيره عن الوقت المناسب ليظهر الخلل ويكثر الزلل او بإخفاء جليل حسناته واشهار حقير سيآته لتغير القلوب عليه ومن دعاء علي رضي الله عنه اللهم احفظني من عدو يرعاني ان رأى مني حسنة دسها وان رأى سيئة أشهرها ثم اذا خيب الله آمالهم بنجاح سعي الوزير المشار اليه في ادارة المملكة رجعوا الى سلوك طريق الوشاية به عند الملك بأن يقولوا انه استبد عليك ولم يبق للملك غير الاسم الى غير ذلك من أنباء الفساق التي قد تروج على العاقل قبل التبين خصوصا عند الدول المشرقية فكيف يتيسر للوزير والحالة ما ذكر أن يجري ادارة المملكة على مواقع المصلحة مخالفا بذلك من هو الخصم والحكم ولما في هاته الحالة الثانية من العوائق يضطر الوزير المذكور اما الى اختيار الحالة الاولى بالمجاراة وسلوك طرق المداراة وعاقبة ذلك وخيمة لعوده بالمضرة على الوطن والملك وعليه نفسه لان استعذاب الموافقة على الشهوة في الحال الناشئ عنه خراب المملكة

يستعقب مرارة الندامة فى المآل واما الى الاستعفاء من الخدمة بالمرة وهو وان لم يكن واجبا لحفظ ذاته فهو واجب للتخلص مما يتوقع من الموافقة على ما يؤل الى خراب المملكة الموجب لعقاب الخالق ولوم المخلوق اذ الانسان ولو ساغ له المخاطرة بنفسه لمصلحة الوطن لا يسوغ له المخاطرة بديانته وهمته وما يجب عليه من الطاعة للملك والمحبة للوطن لا يحصلان الا ببذل الجهد فى النصح بجلب المصالح ودرء المفاسد ان قدر عليهما وان لم يقدر فبالامتناع من الموافقة على ما يضر فان لم يفعل كانت موافقته مع العلم بما ينشأ عنها من المضرة خيانة

فبان بهذا ان الممالك التى لا يكون لادارتها قوانين ضابطة محفوظة برعاية أهل الحل والعقد خيرها وشرها منحصر فى ذات الملك وبحسب اقتداره واستقامته يكون مبلغ نجاحها ويشهد لذلك حالة الممالك الاوروباوية فى القرون الماضية قبل تأسيس القوانين فقد كان لهم فى ذلك الوقت من الوزراء من اهم شهرة الى الآن بتمام المعرفة والمروءة ومع ذلك لم يتيسر لهم حسم مواد الخلل المنبعث من صورتى استبداد الملوك المشار اليهما لا يقال ان مشاركة أهل الحل والعقد للامراء فى كليات السياسة تضييق لسعة نظر الامام وتصرفه العام لانا نقول هذا التوهم يندفع بمطالعة الاحكام السلطانية للماوردى فانه قال فيه عند بيان وزارة التفويض هى أن يستوزر الامام من يفوض اليه تدبير الامور برأيه وامضاءها على اجتهاده وليس يمتنع جواز هذه الوزارة فان الله تعالى يقول حكاية عن نبيه موسى عليه السلام (واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى) فاذا جاز ذلك فى النبوة كان فى الامامة أجوز انتهى

(قلت) فاذا جاز تشريك الامام لوزير التفويض على الوجه المذكور ولم يعد مثل ذلك تنقيصا من تصرفه العام كان تشريكه لجماعتهم أهل الحل والعقد فى كليات السياسة أجوز لان اجتماع الآراء الى مواقع الصواب أقرب ولهذا لما جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلافة شورى بين ستة قال ان انقسموا اثنين وأربعة فكونوا مع الاربعة (ميلا منه الى الاكثر لان رأيهم الى الصواب أقرب قاله السيد السند) وان تساووا فكونوا فى الحزب الذى فيه عبد الرحمن بن عوف على ان المولى سعد الدين فى شرح العقائد لم يمنع المشاركة فى تصرفات الامامة وقصر منع التعدد على منشأ الفساد حيث قال فى أثناء مبحث الامامة غير الجائز هو نصب امامين مستقلين تجب طاعة كل منهما على الانفراد لما يلزم عليه من امتثال أحكام متضادة وأما فى الشورى فالكل بمنزلة امام واحد انتهى أى لان تعدد الاشخاص لا ينافى وحدة الامامة التى مدارها على وحدة الامر والنهى وقد سلم كلام السعد محشوه كالفاضلين عصام الدين وعبد الحكيم وقرره الخيالى بقوله وقد يجاب أيضا وبالجملة فكلهم معترف بصحة كلام السعد فى نفسه وظاهر حينئذ أحروية جواز الشورى فى كليات السياسة بالمعنى الذى أشرنا اليه اذ هى دون الشورى فى سائر التصرفات ثم ان الشورى على الوجه المذكور ليس فيها تضييق لدائرة خطة الامامة وعموم تصرفها باعتبار ان نظر أهل الحل والعقد بمنزلة نظر الامام ومراعاة كونه مظهرا له لاستمداده بحشمته وادارته مع ما يستبد به من التصرفات التى لا تقتضى المشاركة كاجراء الخلطة السياسية والمخابرة مع الاجانب ونصب أرباب الخطط وتأخيرهم وتنفيذ سائر الاحكام ونحو ذلك من التصرفات

التي هي محل وحدة الامر وهاك شاهدا آخر من كلام الامام ابن العربي فانه قال في المغارم التي تؤخذ من الناس عند فراغ بيت المال انها تؤخذ جهرا لا سرا وتنفق بالعدل لا بالاستئثار وبرأى الجماعة لا بالاستبداد انتهى ولزيادة البيان نستوضح ذلك بمثال وهو ان مالك البستان الكبير مثلا لا يستغني في اقامته وتدبير شجره عن الاستعانة بأعوان يكون لهم مزيد معرفة بأحوال الشجر ومايصلحه أو يفسده فاذا اتفق ان رب البستان أراد قطع شئ من فروع شجره لما رأى في ذلك من تقوية الاصول وتنمية ثمارها فلم يوافقه أعوانه على ذلك علما منهم بمقتضى قواعد الفلاحة ان القطع في ذلك الوقت مما ينشأ عنه موت الشجرة من أصلها فتعطيل ارادة المالك في ذلك لا يعد تضييقا لسعة نظاره وعموم تصرفه في بستانه وقد يكون مستند الاعوان في تعطيل ارادته أمرا شرعيا كما اذا اراد بيع الثمرة قبل بدو صلاحها مثلا فأشاروا عليه بأن ذلك لا يرضاه خالق الشجر الذى هو المالك الحقيقي فيلزمه الرجوع لرأيهم في المثالين والا توجه اللوم اليه واستحق ان يحجر عليه وهل يقال حينئذ ان ذلك تضييق على رب البستان بل ان التوسعة عليه مضادة للحكمة الالهية في ايجاد العالم واستعمار أرضه ببني آدم هذا مع ان منفعة البستان مختصة بربه أما اذا كانت له ولغيره أو منزلته فيها كما قال عمر رضي الله عنه كمنزلة والى اليتيم فأحرى ان لا يتوهم ان ذلك تضييق عليه ومعلوم ان تصرف الامام في احوال الرعية لا يخرج عن دائرة المصلحة وان القيام بمصالح الامة وتدبير سياستها مما لا يتيسر لكل احد فتعطيل الارادة حينئذ انما يقع في شئ خارج عن دائرة التصرف المسوغ له فتحرر بما شرحناه اندفاع

ذلك

ذلك القبيل وانه لا مانع من التشريك على الوجه المذكور ومن لاحظ جانب المقتضي كما لاحظه الشيخ ابن العربي فيما قدمناه عنه وهو ملحوظ لنا في جميع ما اسلفناه لم يتوقف في الجزم بتعينه لا سيما في هذا الزمان الذي طم فيه العرفان وكثر الطغيان وقد كانت وقعت بيني وبين أحد أعيان أوروبا مكالمة اسهب فيها بمدح ملكهم وذكر ماله من مزيد المعرفة بأصول السياسة حتى قال انه متقيد بطبعه وعقله عن سلوك غير منهاج الصواب فقلت له كيف تشاحونه في الحرية السياسية وترومون مشاركته في الامور الملكية والحال انكم تسلمون له من الكمالات ما لا يحتاج معه الى المشاركة فأجابني بقوله من يضمن لنا بقاءه مستقيما واستقامة ذريته بعده

ومما يناسب سوقه هنا ما ذكره المؤرخ الشهير تيارس أحد أعضاء مجلس النواب بفرانسا الآن وكان وزيرا للملك لويز فليب في آخر تاريخه المشهور عند ذكر عواقب الاستبداد وان العمل بالرأى الواحد مذموم ولو بلغ صاحبه ما بلغ من الكمالات والمعارف بعدما ترجم لنابوليون الاول بأوصافه الخاصة وألحقه في السياسة بافراد الرجال الذين جاد بهم الدهر في القرون الماضية حتى وصفه بهمة اسكندر الرومي وقيصر الروماني وذكاء انيبال الافريقي ومعارفه الحربية الى أن قال مخاطبا للفرنسيس تعالوا نمعن النظر في أفعال هذا الملك التي هي في الحقيقة أفعالنا فيستفيد منها من كان جنديا كيف ينبغي أن تقاد الجيوش ومن كان من رجال الدولة معرفة كيف ينبغي ان تكون ادارة المملكة وكيف ينبغي ان يرتفع شانها بدون خروج من دائرة التواضع والرفق اذ المعاملة متى لم تكن مصحوبة برفق

وقناعة لانحمل و ربما يفضى ذلك الى أسباب الاضمحلال كما أفضت اليها سيرة المذكور الذى هو أقل البشر قناعة فبالجملة نعتبر مغالطاته فنتجنبها ثم نستفيد معاشر أبناء الوطن تربية أخيرة لا ينبغى نسيانها وهى انه لا يسوغ أبدا أن يسلم أمر المملكة لانسان واحد بحيث تكون سعادتها وشقاوتها بيده ولو كان أكمل الناس وأرجحهم عقلا وأوسعهم علما ونحن وان كنا لسنا ننتقد فعل نابوليون فى افتكاك فرنسا من أيدى الديركتوار بعد ان كانت أشرفت على الضياع فى أيديهم لكن نرى ان وجوب استخلاص المملكة من تلك الايدى الضعيفة الخاسرة لا يكون حجة فى اسلامها اسلاما مطلقا ليد قاهرة متهورة لا تبالى بشئ ولو كانت هى اليد المنتصرة فى ريفلى ومرنغو على انا نقول ان كان هناك أمة تعذر عذرا ما فى تسليم أمرها لشخص واحد فلا تكون غير الامة الفرنساوية فى ذلك الوقت أعنى سنة ثمانمائة وألف حين استرأست نابوليون المذكور عليها والناس اذ ذاك فوضى لا سراة لهم ولم يكن المشير عليها بذلك قاصدا مجرد تخويفها لالجائها الى قيود العبودية بل كان الخوف متحققا بالمشاهدة فواحسرة تلك الامة على ألوف من النفوس البريئة صرعت بالجزيرة وألوف كذلك خنقت بسجون الدير وألوف أغرقت بوادى لوار و بالجملة فقد حل بأولئك المتمدنين من أفعال المتوحشين أمر فظيع روعهم وأرعد فرائصهم ولم يزالوا بعد سكون تلك الثورة القاسية راتعين بين الساعين الواعين بقطع الرؤس وهم جماعة الديركتوار و بين الجهال المتغربين عن وطنهم وهم شيعة الملوك الذين كانوا يرومون باراقة الدماء ارجاع فرنسا الى الحالة القديمة التى كانت قبل الثورة معماطرا عليهم فى أثناء ذلك

الاضطراب

الاضطراب من ظهور سيف الاجنبي متهددا فبينما هم في لجج الهرج اذ اقبل من المشرق الشاب المنصور الذى ذلت له صعاب الامور العاقل المتواضع المغري باستمالة قلوب البشر وهو نابوليون المشار اليه افتراهم والحالة هذه لا يحذرون في القاء زمامهم بيد المذكور بلى

اذا لم تكن الا الاسنة مركبا * فلا يسع المضطر الا ركوبها

ومع ذلك فلم تمض الاسنوات قليلة اذ انقلب ذلك العاقل مجنونا بجنون غير مماثل لجنون ارباب الثورة والجنون فنون فانه تقرب بمليون من النفوس في ميدان الحرب وحمل أهل اوربا على التعصب على فرنسا حتى بقيت مغلوبة غريقة في دمائها مسلوبة من نتائج انتصارها مدة عشرين سنة بحيث صارت على حالة يرثى لها ولم يبق لها ان تستثمر بعد ذلك الا ما كان مزدرعا فيها من بذر التمدن الوقتي فمن كان يظن ان عاقل سنة ثمانمائة وألف يجن في سنة اثنتي عشرة وثمانمائة والف نعم كان يمكن توقع ذلك لو امعنوا النظر في ان الذى له القدرة التامة بحيث يستطيع ان يفعل كل ما يريد معه داء لا دواء له وهو الشهوة الداعيه لفعل كل مستطاع ولو كان قبيحا اذا تقرر هذا فعلى ابناء الوطن ان يتاملوا سيرة المذكور ويستخرج منها كل فريق ما يناسب خطته والاهم امر واحد وهو ان لا يطلق امر الوطن لانسان واحد كائنا من كان وعلى أى حالة كان وقد ختمت هذا التاريخ الطويل المستوعب لاحوال نصرنا وانهزامنا بهذه النصيحة بل النصيحة الصادرة عن صميم فؤادى غير مشوبة بريا راجيا بلوغها الى قلب كل فرنساوى ليتيقن جميعهم انه لا يليق بهم بذل حريتهم الى احد كما لا ينبغى لهم

الافراط فيها حتى تنتهك حرمتها انتهى المراد منه وفى حكمة أرسطوان من الغلط الفادح ان تعوض الشريعة بشخص يتصرف بمقتضى ارادته فاذا تأملت كلامى هذين الحكيمين وما تضمنه أولهما من الشاعة فى الاستبداد مع كون المستفاد من المشهود لهم بمزيد العرفان والاهلية تعرف بذلك ما جبلت عليه نفوس القوم من حب الحرية والامتناع من ظلم الملوك كما يشهد به كلام سيدنا عمرو ابن العاص رضى الله عنه فى حديث مسلم الذى رواه المستورد القرشى رضى الله عنه عنده فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تقوم الساعة والروم أكثر الناس فقال عمرو ابصر ما تقول قال أقول ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لئن قلت ذلك ان فيهم لخصالا أربعا انهم لاحلم الناس عند فتنة وأسرعهم افاقة بعد مصيبة واوشكهم كرة بعد فرة وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف وخامسة حسنة جميلة وأمنعهم من ظلم الملوك

هذا وقد كانت الامة الاسلامية وقت احترامها للاصول الشرعية المشار الى بعضها سابقا بالمكانة التامة من الثروة والشوكة المحروسين بسياج حسن تدبير أمرائها وعدلهم واستجلابهم رضاء الله تعالى بتعمير أرضه نقل صاحب كشف الظنون ان بعض العلماء قال لو علم عباد الله رضاء الله فى احياء أرضه لم يبق على وجه الارض موضع خراب ومن حكم أرسطو العالم بستان سياجه الدولة والدولة سلطان تحيا به السنة والسنة سياسة يسوسها الملك والملك نظام يعضده الجند والجند أعوان يكفلهم المال والمال رزق تجمعه الرعية والرعية عبيد يكنفهم العدل والعدل مألوف وبه قوام العالم فقد تضمنت هذه الكلمات الحكمية الاشارة بجعل العالم بستانا الى تشبيه الرعية بشجر ثمرته المال

وحارسه

وحارسه الجند وان استقامة الدولة بها حياة السنة السياسية التى هى مادة حياة بستان العالم ومن آثار ثروة الامة الناتجة من احترام اصول العدل ما حكاه المقريزى فى الخطط قال لما سار المأمون فى قرى مصر وكان يقيم بالقرية يوما وليلة اجتاز بقرية يقال لها طاء النمل ولم يقم بها فتوسلت اليه عجوز كبيرة بالقرية فى الاقامة فأسعفها واحضرت من لوازم نفقة الخليفة وجنوده ما عظم لديه امره واهدت له حين عزم على الرحيل عشرة أكياس من سكة الذهب كلها ضرب عام واحد فازداد تعجبه وقال ربما يعجز بيت المال عن مثل هذا ورد عليها مالها رفقابها فلم تقبل وقالت هذا واشيرة الى الذهب من هذه أى طينة الارض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين وعندى من هذا شئ كثير فقبله واعظم جائزتها انتهى بتصرف واختصار (وحكى) ايضا ان خراج مصر بلغ فى زمن الخلفاء الراشدين أربعة عشر مليون دينار وقدرها بسكة الوقت نحو سبعمائة مليون فرنك وهذا المبلغ دخل بالة واحدة مع الانصاف فى الجباية وحكى ابن خلدون فى المقدمة ان المحمول الى بيت المال فى أيام الرشيد العباسى بلغ الى سبعة آلاف وخمسمائة قنطار ذهبا وقدر ذلك تقريبا ألف وأربعمائة مليون فرنك وهذا دون ما يؤخذ من العين ويدل على ان القوة العسكرية الناتجة من عدل الشريعة واتحاد الامة ما تيسر لهم من الفتوحات التى يشهد بها المؤرخون من الفريقين ويصدقها العيان ففى قرة العيون الذى ترجمه الشيخ احمد الزرائى المصرى من اللغة الفرنساوية وعد من حسنات المطبعة المصرية ان الاسلام فتح فى ظرف ثمانين سنة من الاقاليم أكثر مما فتحه الرومان فى ثمانية قرون وبما نقلناه يعلم ما كان للامة الاسلامية من نمو العمران وسعة الثروة والقوة

الحربية الناشئة عن العدل واجتماع الكلمة واخوة الممالك واتحادها في السياسة واعتنائها بالعلوم والصناعات ونحوها من المآثر العرفانية التي ظهرت في الاسلام ونسج الاوربا ويون على منوالها وشهد المنصفون منهم بفضل التقدم فيها للامة الاسلامية

ففي تاريخ دروي وزير المعارف العمومية بفرنسا الآن ما معناه ينسب أهل أوربا تائهون في دجى الجهالة لايرون الضوء الا من سم الخياط اذ سطع نور قوي من جانب الامة الاسلامية من علوم أدب وفلسفة وصناعات واعمال يد وغير ذلك حيث كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفاس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف ومنها انتشرت في الامم واغتنم منها أهل أوربا في القرون المتوسطة مكتشفات وصناعات وفنونا عليه يأتي بيانها وفيه يقول كانت الآداب قبل انتشار العرب من جزيرتهم متأصلة فيهم مؤداة بلغتين الحميرية في اليمن والقرشية في الحجاز وبالاخيرة جاء القرآن (ولايخفى عليك ان الذي يقابل الحميرية هو المضرية وان وقع الاجماع في القراءة على خصوص القرشية) ولذلك اشتهرت واستمر خلوصها الى وقتنا هذا باستمرار كتب العلم والديانة وما دخلت العجمة في اللسان الا بدخول الامم في الاسلام وتطاول السنين * وللغة المذكورة من الاتساع وسعة المجال ما لايخفى على منافيها لاسيما في الاشياء التي بها قوام المعيشة في البادية أو تتكرر رؤيتهم لها وتكثر حاجتهم اليها فقد يكون للشيء الواحد عدة اسماء باعتبار تعدد صفاته واحواله وبكثرة الترادف عندهم اتسعت لهم دوائر الآداب الشعرية اذ يقال ان للعسل عندهم ثمانين اسما وللثعبان

مائتين وللاسد خمسمائة وللجمل ألفا وكذا السيف وللداهية نحو أربعة آلاف اسم ولا جرم ان استيعاب مثل هذه الاسماء يستدعي حافظة قوية وللعرب من قوة الحافظة وحدة الفكر ما لا يسع احدا انكاره فمن مشاهيرهم حماد الراوية الذي ذكر يوما للخليفة الوليد انه ينشد له في الحال مائة قصيدة والقصيدة من عشرين الى مائة بيت فتعب المستمع قبل المنشد الى ان قال ولم يكن للعرب في اول الامر الا تلك الآداب ثم لما اتسعت لهم دوائر الفتوحات واختلطوا بالامم الذين سبقوهم في الحضارة اتسع لهم نطاق المعارف فأخذوا من اليونان تآليف ارسطو وشرحوها بامعان نظر لكن من سوء البخت لم يأخذوا الفلسفة من كتب اليونان الاصلية وانما تعلموها من الكتب المترجمة بلغة اهل الشام فهم ترجموا المترجمة فلذلك لما نقلها الفيلسوف العربي حفيد بن رشد الى اوربا في القرون المتوسطة وجد بها من التحريف اكثر مما وقع فيها اولا واما العلوم الرياضية فقد صادف فيها العرب المرمى والفضل في ذلك للعلماء الذين جلبهم الخليفة المأمون من القسطنطينية وفي اوائل القرن التاسع المسيحي امر الخليفة المذكور طائفتين من فلكية بغداد ان يقيسا مسافة درجة واحدة من خط الطول بصحراء سنجار وبرناها ليثبت بذلك تكوير الارض بالمشاهدة وقد تبين ذلك باختلاف ارتفاع القطب الشمالي عن طرفي الخط المقيس وقد شرح العرب كتاب اقليدس وهذبوا زيج بطليموس وحرروا حساب تعريج منطقة البروج كما حرروا الفرق بين اوقات الاعتدال والفرق بين السنين الشمسية والزمنية فوجدوا بين السنة الشمسية والسنة الزمنية

هذه دقائق واخترعوا للتحريرات آلات جديدة الى غير ذلك مما يدل على ما للعرب من قابلية العلوم الرياضية ومنهم حازت مدينة سمرقند قبل أوروبا بكثير محل رصد عجيب وأما ما ينسب للعرب من اختراع الجبر والمقابلة والارقام الحسابية المسماة عندنا بالارقام العربية فلم يثبت بل انما تعلموا ذلك مع فلسفة ارسطو بالتلقى من غيرهم وهى من العلوم التى وجدوها باسكندرية ويمكن انهم نقلوا الينا على ذلك الوجه البوصلة اى بيت الابرة والبارود الذى تعلموه من أهل الصين كما يعترف لهم أهل أوروبا بنسبة اختراع الكاغد من القماش وبذلك كثرت الكتب ودنت أسعارها وسهل الطبع وتوفرت نتائجه بعد وجوده وقد اشتهر العرب ايضا بمعرفة الطب الذى كانوا تلقوه من كتب اليونان ولابن رشد تعليقات عديدة على كتب جالينوس شاهدة بما ذكر ومن فلاسفتهم عدة أشخاص صاروا فى وقت واحد حكماء وأطباء مشاهير مثل أبى على بن سينا المتوفى سنة ست وعشرين وأربعمائة هجرية وابن رشد المذكور وقد بلغوا من الشهرة الى حيث صار أعداؤهم فى ذلك الوقت يرغبون فى معالجتهم اياهم كما يحكى ان بعض ملوك قسطلية كان اعتراه مرض الاستسقاء فاشتهى أن تكون معالجته بقرطبة وحصل من لطف الخليفة على الاذن فى أن يذهب ويداويه المسلمون ومن مآثر حكماء العرب كيفية تقطير المياه واستعمال الراوند وأدوية كثيرة ومن العلوم التى لهم الفضل فيها الجغرافيا وسبب تقدمهم فيها أن اتساع فتوحاتهم ورغبتهم فى الاسفار الخطيرة وافتراض الحج عليهم أنتجت لهم المعرفة بكثير من البلدان الشاسعة التى لم يصل اليها اهل أوروبا أو وصلوها بعدما كانت معروفة لهم ومن مشاهيرهم فى هذا الفن ابو الفداء والمسعودى

والادريسى

والادريسي وهذا الاخيرهو الذي استدعاه روجير ملك صقلية وألف عنده كتابه الغريب الذي سماه نزهة المشتاق وأما علم التاريخ فمن تآليفهم فيه تاريخا المسعودي وابي الفداء المذكورين وتاريخ المقريزي غير انها تواريخ مختصة بأبناء جنسهم وقل أن يوجد بها الفكر يتبيك يعني انهم لا يسبرون منه ولا تهم بمسبار العقل كما أشار الى ذلك ابن خلدون ولا يخرجون عن دائرة الوقائع المجردة ولا سبب لذلك الاما حكاه (سدليو) في تاريخه الآتي ذكره من أن وجود التسلط من الملوك في بلدان المشرق هو الذي كان يمنع المؤرخين من شرح جميع الوقائع ببيان أسبابها للخطر الذي يلحقهم في حكاية الحق وأما صناعة (الارشتكتور) اي هندسة البناء في اصطناع الهيآت فلم يشتغل العرب منها الا بما يرجع الى اتقان الابنية حيث كانت شريعتهم تمنع التصوير على ان البناء نفسه لم تظهر لهم فيه اختراعات غريبة فالاصل عندهم في الاقواس المرفوعة على الاسطوانات أن تكون أكبر من نصف دائرة وهذا الشكل أخذوه من أبنية البزنتيين وهم أمة من اليونان واعتاض العرب عن الصور والذهبية والجسدة التزيين بالنقش المسمى عندهم بنقش حديدة وكان في الاصل رسوما لها مدلولات ثم صار مجرد خطوط متقاطعة شبيهة بالحروف العربية التي يمكن ان يصور منها اشكال جيدة ظريفة وكثيرا ما نتعجب من اتقان تلك الحروف حين نراها على الزرابي والاقمشة المشرقية ومن مآثر العرب اصطناع الجوابي والفوارات والترويق بالذهب والاحجار الثمينة كالمرمر التي كانوا يجلبونها من المشرق ومن مقاطع اسبانيا الجنوبية ومن أشهر ابنيتهم الجامع العظيم الذي بناه عبد الرحمن الاول بقرطبة وكان به ألف وثلاث وتسعون اسطوانة وأربعة

آلاف وسبعمائة قنديل ثم قصر الزهراء الذي لا يتأخر عن الجامع المذكور في العظم وقد بناه عبد الرحمن الثالث على شاطئ الوادي الكبير وبه ينبوع عظيم يفور منه شبه باقة من الزئبق ثم ينعكس في قصعة من المرمر ومن بديع أبنيتهم حمراء غرناطة التي هي في آن واحد قصر وحصن وبها عدة امور تصلح ان تكون مثالا للطافة البناء وحسنه خصوصا وسطها المسمى ببطحاء الاسود (وأما) التجارة فقد كان للعرب حسن رغبة فيها في سائر الاوقات ثم لما امتدت سلطنتهم من البيرينى وهى جبال بين فرنسا واسبانيا الى جبال هملاى التي بأقصى شمال الهند صاروا اكبر تجار الارض (وأمّا) الفلاحة فلا يعلم لهم نظير فيها اذ ليس لغيرهم ما لهم من الاقتدار على جلب المياه وتوزيعها بلطف في مزارعهم الواسعة تحت شمسهم المحرقة فسيرتهم في ذلك السائر بها الى الآن أهل بلنسية روضة اسبانيا صالحة أن نجعلها أسوة نقتدي بها في فلاحتنا الفرنساوية وأمّا الصناعات فان العرب تعلموا جميعها لما دخلوا بلدان الرومانيين العظيمة حتى صاروا من أحذق أربابها وكفاهم شهرة في ذلك سلاح طليطلة التي كانت تحت سلطانهم باسبانيا وحريريات غرناطة والجوخ الازرق والاخضر بمدينة (كونسة) والسروج والحرو ج والجلود بقرطبة وكان اهل أوربا يشترون هذه المهمات بأعلى ثمن ويتنافسون فيها مع شدة نفرتهم من اهلها المخالفين لديانتهم وبالجملة فقد بلغت اسبانيا من العمران الى هذه الشهرة في القرون الاولى من مدة الخلفاء حيث كانت الفتن عنها أسكن من المشرق وقد تزايد عمرانها الى أن صار بمدينة قرطبة وحدها نحو مائتي ألف دار وستمائة جامع وخمسين مارستانا وثمانين مكتبا عموميا وتسعمائة حمام ومليون نفس فهناك برنامجا اجماليا للتمدن

الذي

الذى نشره العرب من شاطئ تاج وهو واد كبير باسبانيا الى وادى هندوس بالهند تمدنا يكاد يخطف نوره الابصار ولكنه لسرعة نموه كان معرضا للعطب قال وتمدن أورباالبوم كان أبطأ فى النمو ولكنهم حصلوا بعد انقلابات وكسوفات على ما يمكن به طول البقاء المعتاد فى كل بطئ النمو وقال فى بيان امتداد ملك العرب قد امتد ملكهم فى ظرف مائة سنة من ظهور الاسلام مثل ما يمتد عظيم الخلافة فانحاذ راعيه لالتقاط شئ فبلغ من اقصى الهند الى جبال بيرينى الكائنة بين فرنسا واسبانيا وقدر امتداد هذا الملك من سبع عشرة الى ثمان عشرة مائة فرسخ ولم يبلغ هذا المبلغ دولة من الدول الماضية وقد استمرت الديانة واللسان وأحكام القرآن نافذة فى غالب البلدان التى فتحوها واغتنمت منهم أوربا فى القرون المتوسطة مكتشفات وصنائع وعلوما وان كان منها ما اخذوه من غيرهم لكن لهم الفضل فى تهذيب ذلك وتخليده بعدهم ثم فى النصف الثانى من القرن العاشر المسيحى توجه الراهب الفرنساوى جوبير الذى جلس على الكرسى البابوى باسم سلفستر الثانى الى مسلى اسبانيا وقرأ هناك علم الجبر والفلك واجرى لاهل اوربا النصرانية منهلا جديدا من معارف العرب وجمع خزانة جليلة من الكتب وصنع كرتى السماء والارض اه ما امكن تلخيصه من كلام الوزير المشار اليه وفى تاريخ العرب لسدليو مدرس علوم التاريخ باحدى مدارس فرنسا واحد اعضاء جمعية المعارف بها ما معناه انى منذ مدة طويلة تنيف على العشرين سنة مشتغل ببيان مزايا العرب على غيرهم من الامم فيما يتعلق بالعلوم والقدم فى التمدن مدة قرون متطاولة من ايام اليونان بالاسكندرية الى ايام العصر الجديد فلزمنى ان اجمع ما تيسر لى من الادلة على عظم هذه الامة التى لم يعرف

قدرها الى الآن واعرضه على مالغيرى ممن تكلم عليها فيتأسس تاريخا لها عموميا وان كان ذلك مما لا تفي به طاقة انسان واحد وقبل الشروع في ذلك على وجه الاختصار يلزمني ان أندب الناس الى التأمل في احوال هذا الجنس الذي كان كثير الفتوحات عديم الاستيلاء عليه في سائر مغازيه ولم يزل مدة اربعة آلاف سنة على حال واحد في اكتساب الفضائل والمزايا التي تميز بها على غيره والتراتيب والعادات الخاصة به ومن حجج ذلك ان الوقت الذي كانت فيه الممالك القديمة في مبدا تكوينها ذات حيرة كان هذا الجنس اذ ذاك قائما بنفسه قادرا على الاغارة على غيره فقد كانت ملوك مصر وبابل من ذلك الجنس مدة تسعة عشر قرنا قبل التاريخ المسيحي ثم بعد ان رجع الى حدوده الاصلية دافع عن نفسه سلطة الفراعنة وملوك الشام وامتنع من تسلط فيرس واسكندر ودام في استقلاله ضد الرومان الذين كانوا ملكوا الدنيا وبعد ظهور (النبي صلى الله عليه وسلم) الذي جمع قبائل العرب بأمة واحدة تقصد مقصدا واحدا ظهرت للعيان أمة كبيرة مدت جناح ملكها من نهر طاج في اسبانيا الى نهر (الغانج) في الهند ورفعت على منار الاشادة اعلام التمدن في اقطار الارض ايام كانت اوربا مظلمة بجهالات اهلها في القرون المتوسطة كأنها نسيت بالمرة ما كان عندها من التمدن الروماني واليوناني وبعد انقسام ممالك الاسلام لم تتعطل العلوم والآداب التي نمت على ايديهم فان خلفاء بغداد وقرطبة ومصر وان ضعفت قوتهم الملكية والسياسية فان سلطنتهم الروحانية لم تزل قوية مطاعة في كل جهة لاجتهادهم في توسيع دوائرها بقدر طاقتهم وقد نال النصارى الذين استطاعوا اخراج العرب من اسبانيا بالمخالطة معهم في الحرب وبمعارفهم

وصناعتهم واختراعاتهم ثم المغل والترك الذين تسلطوا على آسيا وتداولوها كانوا خدمة في العلوم لمن تغلبوا عليه من فرق العرب والى الآن لم نطلع في اوربا على الاصول التي تبين لنا عادات العرب اطلاعا تاما اذ لم يعرف عندنا من تواريخهم الا تواريخ ابي الفداء وابي الفرج والمقريزي وابن الاثير ونبذة من تاريخ ابن خلدون ونجهل بالمرة تواريخ كثيرة نود لو نجد من يترجمها لنا وان كان المقدار الذي حصل عندنا كافيا في رد غلط من غلط من اهل اوربا في شأن العرب ثم اني ذكرت في تاريخنا هذا ما يتعلق بفتوحات الخلفاء الاولين وبتاريخ دولة بني امية بدمشق وقرطبة وبتاريخ دولة بني العباس ببغداد والفاطميين بمصر وبانقسام الممالك الاسلامية بالمشرق بعد تسلط الترك والمغل عليهم فبينت جميع ذلك بقدر الطاقة وزدت عليه شيأ لم يوجد في التواريخ السالفة وهو برنامج التمدن العربي الذي قد توشجت عروقه في الدنيا القديمة واستمرت آثاره ظاهرة الى الآن لكل من يبحث بالجد عن اصل المعارف منا وفي اوائل القرن الثامن من تاريخنا تبدل ولوعهم بالفتوحات بالجد في المعارف والعلوم فكانت اذ ذاك قرطبة ومصر وطليطلة وفاس والرقة واصبهان وسمرقند تتسابق في ميدان العلوم مع بغداد تخت بني العباس وترجمت في تلك المدة كتب اليونان وقرئت بالمدارس وشرحت وسرت حركات عقولهم في جميع مواد المعارف الانسانية فنتج عنها من الاختراعات الغريبة ما شاع صيته في اوربا فتبين بلا اشكال ان العرب هم اساتيذنا بلا انكار لانهم جمعوا الادوات المؤسسة عليها تواريخنا المتوسطة وبدؤا بكتابة الرحلات واخترعوا

التأليف فى تاريخ وفيات الاعيان ووصلوا فى صناعة اليد الى غاية لاتحدو بقية آثار أيديهم مما يدل على اتساع معارفهم وكذلك اختراعاتهم الغريبة تزيد بيانا الفضائلهم التى لم يزلوا الى الآن منزلتهم التى يستحقونها بسببها فان علوم الفيزيك والطب والتاريخ الطبيعى والكيمياء والفلاحة لما جاءت فى ايديهم ازداد فيها الغريب مع كونها من المحسوسات التى لاتصرف لهاهم مهم صرفا تاما فكيف بالعلوم العقلية التى اجتهدوا فيها اجتهادا يفوق الحد من مبدأ القرن التاسع الى انتهاء القرن الخامس عشر ثم نقول ما نسبة ما عرفناه الآن منهم ببحثنا الى ما بقى مجهولا لنا من ذلك وبالجملة فالعرب هم منبع معارفنا ولم نزل الى الآن نطلع على اشياء من مخترعاتهم التى كانت منسوبة لغيرهم كلما قرأنا كتبهم ثم قال فى شأن التمدن العربى انهم كانوا فى القرون المتوسطة مختصين بالعلوم من بين سائر الامم وانقشعت بسببهم سحائب البربرية التى امتدت على اوربا حين اختل نظامها بفتوحات المتوحشين ورجعوا الى الفحص عن ينابيع العلوم القديمة ولم يكفهم الاحتفاظ على كنوزها التى عثروا عليها بل اجتهدوا فى توسيع دوائرها وفتحوا طرقا جديدة لتأمل العقول فى عجائبها ثم استشهد بقول اسكندر همبلط ان العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الامم المنتشرة من شواطئ نهر الفرات الى الوادى الكبير باسبانيا وبين العلوم واسباب التمدن فتناولتها تلك الامم على ايديهم لان لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم أثرت فى الدنيا تأثيرا لا يشتبه بغيره فكانوا فى طبيعتهم مخالفين لبنى اسرائيل الذين لا يطيقون خلطة احد من الناس فيخالطون غيرهم من غير ان يختلطوا به ولا يتبدل طبعهم بكثرة المخالطة

ولا

ولاينسون اصلهم الذى خرجوا منه وما اخذت أمم المانيا فى التمدن الا بعد مدة طويلة من فتوحاتهم بخلاف العرب فانهم كانوا يحملون التمدن معهم فحيثما حلوا حل معهم فيبثون فى الناس دينهم وعلومهم واخلاقهم الشريفة وتهذيباتهم واشعارهم الشهيرة التى هى اساس بنى عليه المنسفر والتربدور اشعارهم ثم قال بعد ذلك ونعود الآن فنقول انه ثبت عندنا بما صنفه العرب واخترعوه رجحان عقولهم الغريب فى ذلك الوقت الذى وصل صيته الى اوربا النصرانية وهذا حجة على انهم كما قال غيرنا ونحن نعترف به اساتيذنا ومعلمونا انتهى المقصود منه

ثم ان الدولة الاسلامية أخذت فى التراجع لما انقسمت الى دول ثلاث الدولة العباسية ببغداد والمشرق ودولة الفاطميين بمصر وافريقية ودولة الامويين بالاندلس ثم تكاثرت الحروب الداخلية وانقسمت تلك الدول خصوصا الاندلسية فانها صارت ملوك طوائف وتحقق فيهم قول القائل

ألقاب سلطنة فى غير موضعها * كالهر يحكى انتفاخا صولة الاسد

وموجب ذلك التفرق تعارض الاغراض والشهوات من الامراء والثوار الذين لم يعتبروا ما فى الانقسام من المضار على الجميع حتى نشأ عن ذلك خروج الاندلس من يد الاسلام

و وقع من الخلل فى بقية الممالك ما تفاقم ضرره لولا ان تلافى الامر بتأييد الله سلاطين آل عثمان الكرام فجمعوا غالب الممالك الاسلامية تحت رعاية سلطنتهم العادلة التى تأسست سنة سبعمائة وتسع وتسعين من الهجرة النبوية فتراجع للامة عزها بحسن تدبيرهم واحترامهم للشريعة المصونة

بحفظ حقوق الرعية و بفتوحاتهم الجليلة المذكرة لفتوحات الخلفاء الراشدين وارتقائهم في سلم التمدن خصوصا في مدة السلطان سليمان ابن السلطان سليم في اوائل المائة العاشرة حيث بادر لقطع الذرائع التي يتوقع بسببها وقوع الخلل في الممالك بعبارته من قانونه النافع الذي استعان فيه بالعلماء العاملين وعقلاء رجال دولته و جعل مداره على اناطة تدبير الملك بعهدة العلماء والوزراء وتمكينهم من تعقب الامراء والسلاطين ان حادوا وذلك ان ملك الاسلام مؤسس على الشرع الذي من اصوله المشار اليها سابقا وجوب المشورة وتغيير المنكر والعلماء اعرف الناس به كما ان الوزراء اعرف بالسياسة ومقتضيات الاحوال فاذا اطلع العلماء والوزراء على شئ يخالف الشريعة والقانون الخادم لها فعلوا ما تقتضيه الديانة من تغيير المنكر بالقول أولا فان افاد حصل المقصود والا اخبروا اعيان الجند بأن وعظهم لم ينفع و بين في القانون المذكور ما يؤل اليه الامر اذا صمم السلطان على ان ينفذ مراده وان خالف المصلحة وهو انه يخلع و يولى غيره من البيت الملكي واخذ على ذلك العهود والمواثيق من العلماء و رجال الدولة واستمر العمل على ذلك فكانت منزلة العلماء والوزراء بالدولة بمقتضى هذا القانون في الاحتساب على سيرة السلاطين كمنزلة وكلاء العامة في اوربا الآن في بيانهم بل هي اعظم باعتبار ان الوازع الدنيوي الداعي الى الاحتساب متأيد بالوازع الديني عندنا فبذلك القانون المشار اليه استديم نجاح الدولة وحسن سيرتها

ثم انها اخذت في التأخر والنقص لما قصرت في اجراء المصالح الملكية على مقتضى الشرع والقوانين السياسية وعدمت التحري في انتخاب ارباب الخطط المعتبرة فتصرف بعضهم بحسب الفوائد الشخصية لا باعتبار

مصلحة

مصلحة الدولة والرعية الى أن دخل فى عسكر الانكشارية من افسد من نظامهم وخلخل طاعتهم حتى تداخلوا فيما ليس لهم من احوال الملك وحيروا راحة السكان بظلمهم المتنوع بعد ان كان يضرب المثل بطاعتهم كما يضرب بشجاعتهم فى ميادين الحرب فنشأ من مجموع هاته الامور وأمثالها الاضطراب فى المملكة واغتنم ولاة الممالك البعيدة الفرصة فى الامتناع من الانقياد لاوامر الدولة واطلقوا اعنة الاغراض والشهوات والتجأ الكثير من اهل الذمة الى الاحتماء بالاجانب لان الانسان اذا انقطع أمله من حماية شريعة الوطن لنفسه وعرضه وماله يسهل عليه الاحتماء بمن يراه قادرا على حمايته ويسعى فى الاسباب التى يمكن بها تسلط حاميه على المملكة خصوصا من لم يكن بينه و بين الدولة اتحاد فى الجنس والديانة وبمثل هاته المضار الناشئة عن تصرف الولاة بدون قيد شرعى او سياسى تيسر للاجانب التداخل فى احوال المملكة وافساد سياستها بما يناسب اغراضهم حتى نشأت حروب اهلية فى عدة جهات من المملكة دامت مدة طويلة وافنت نفوسا واموالا كثيرة وتسبب عنها خروج ممالك معتبرة من يد الدولة و وقع من الخلل فى باقيها ما اعظم ضرره لولا تدارك المرحوم السلطان محمود وولديه المرحوم السلطان عبد المجيد والمؤيد السلطان عبد العزيز دام عزه بتعويض الاول عساكر الانكشارية بالعسكر النظامى وقطع دابر أمراء الايالات المسماة عندهم بالداربى فانقطعت بذلك المظالم الناشئة من ذينك الفريقين وضبط الثانى للسياسات الشرعية بالتنظيمات الخيرية التى هى أساس تصرفات الدولة فى الحال باعانة من رجال الدولة وعلمائها العاملين سنة الف ومائتين وخمس وخمسين ثم باجتهاد الثالث أيده الله فى تمشيتها وتهذيبها واضافة

ما تظهر لياقته بالاحوال بمقتضى تجربتها كالقانون الذى رتبه أخيرا فى ادارة مصالح الايالات الذى يؤمل منه مصالح جمة وقد كانت العامة فى مبدأ الامر أنكرت تلك التنظيمات انكارا كليا حتى ظهر فى بعض جهات المملكة مبادى الاضطراب وسبب ذلك ان عمال تلك الجهات وغيرهم ممن له فائدة فى التصرف بلا قيد ولا احتساب لما تيقنوا ان اجراء الادارة والاحكام على مقتضى التنظيمات مما يخل بفوائدهم الشخصية دسوا للعامة من قول الزور والغش ما ينفرهم منها مثل قولهم هذا شرع جديد مخالف لشريعة الاسلام واعانهم على ذلك من كان له من الدول الاورباويه فائدة فى عدم نجاح سعى الدولة فى تحسين احوال ممالكها فالدولة العلية عوض ان تغتنم تلك الفرصة وترجع الى استبدادها كما وقع فى بعض الممالك كذبت تلك الظنون الفاسدة بارسال فخر علماء ذلك العصر وأتقاهم اعنى شيخ الاسلام المقدس عارفا بك الى جهات الاضطراب لوعظ الناس وامرهم بالطاعة والامتثال فخطب بذلك على المنابر و بين للناس ان تلك التنظيمات ليست خارجة عن المنهج الشرعى وما هى الا ضبط للسياسات الشرعية التى كانت اهملت وان الداعى اليها ليس الا تحسين ادارة المملكة وحفظ حقوق الامة فى النفس والعرض والمال وكف الايدى الجائرة من الولاة ونحو ذلك من المصالح فانقادت الرعية عند ذلك وسكنت واستمر العمل بالتنظيمات فى سائر الجهات بقدر الامكان وأنت خبير بأن مثل هذا الحبر الذى سارت بمآثره الركبان وشهد له بالعلم والعمل جهابذة ارباب العرفان خصوصا فخر القطر الافريقى وبحر الرشاد التحقيقى من بلغ صوت صيته مسامع سائر النواحى الاستاذ العلامة سيدى ابراهيم الرياحى لو لم ير مساغا لهذه التنظيمات

ماخطب

ماخطب بها على المنابر ولا كان على تقريرها حزم مثابر ومن تأملها بعين الانصاف لم يجد فى حسنها و لياقتها امثار خلاف بل جزم بأنها قوام الاستقامة والوسيلة التى يستعاد بها ما كان للدولة من العز و الفخامة وهذا الصنع الجميل الذى صدر من هؤلاء السلاطين العظام مع ما حصل به من تحسين حال الدولة والرعايا بما لا يسع المنصف انكاره بالنسبة لما كان قبل لم يقنع حزبا من المسلمين مع الرعايا من غيرهم بل لم يزالوا يطلبون من الدولة اطلاق الحرية بمقتضى قوانين يكون تأسيسها وحمايتها من مجلس مركب من أعضاء تنتخبهم الاهالى وفى هذه المدة الاخيرة اشتد الحاحهم فى طلب ذلك حسبما تضمنته صحف الاخبار ونحن وان لم نطلع على احوال ادارة المملكة العثمانية فى الحال لاسيما فى كيفية اجراء تلك التنظيمات اطلاعا يمكننا معه معرفة صحة الاسباب التى يتظلم منها الفريق المذكور أو عدم صحتها فانا نسلم ان هذا المطلب الذى طلبوه هو من اعظم الوسائل فى حفظ نظام الدولة وقوة شوكتها ونمو عمران ممالكها و رفاهية رعاياها خصوصا فى هذه الازمان كما نسلم ايضا ان مقصد المسلمين من اهل الحزب المذكور بطلبهم لما ذكر انما هو اصلاح حال الدولة والرعية لكن لنا أن نسألهم هل ثبت عندهم ان مقصد غيرهم ممن معهم موافق لمقصدهم حتى تحصل لهم الثقة بهم و بصدورهم ماذكر فانا نرى خلاف ذلك منهم بما دلت عليه القرائن من أن مراد أكثرهم انما هو التفصى عن سلطة الدولة العثمانية حيث لم يظهر منهم بعد نيل الحرية الموجودة الآن شئ من امارات النصح للدولة بل ربما اظهروا حب النزوع الى جنسهم بالتظلم من تصرفاتها واستثارة مبادى الحمية معها وذلك لاستمرار افساد الاجنبى لهم وزرعه بذر الحمية فى صدورهم لاغراض له لا تخفى

فربما كان تأسيس الحرية على الوجه المطلوب آنفا قبل التبصر في العواقب مما يسهل غرضهم المذكور اذ من لوازم هذه الحرية تساوى الرعايا في سائر الحقوق السياسية التي منها الخطط السامية مع ان من الشروط المعتبرة في اعطائها تلك الحرية تواطؤ جميع الرعايا على مصلحة المملكة وتقوية شوكة دولتها ولاقل من هذا السبب امتنع بعض الدول الاوروباوية من اطلاق الحرية المشار اليها تحاشيا من تحزب بعض الرعايا على تبديل العائلة الملكية كما سيأتي بيانه عند الكلام على حرية أوربا فاذا ساغ الامتناع مع كون البدل المتوقع من جنس المبدل منه فلأن يسوغ هنا مع كونه من غير الجنس احرى وأولى وأيضا فان رعايا الدولة ينقسمون الى عدة أجناس مختلفة الاديان واللغات والعادات وغالبهم يجهل اللغة التركية التي هي لغة الدولة بل يجهلون لغة بعضهم بحيث تتعسر المفاوضة بينهم لو ركب مجلس من جميع طوائفهم ولا يتيسر اعطاء الحرية للبعض دون البعض لما ينشأ عن ذلك من الهرج فيجب أن تعتبر حالة هؤلاء الرعايا من اعظم العوائق عن تأسيس الحرية على الوجه المطلوب بالدولة العثمانية فمن اعتبر ما أشرنا اليه لا يسوغ له ان يوجه اللوم على الدولة في توقفها الى الآن عن اعطاء الحرية المطلقة وتأسيس المجلس المذكور وان كان ماذكرناه لا يرفع عنها وجوب الاجتهاد في قطع تلك العوائق التي يكون حسمها بعون الله تعالى من مآثر خلافة العصر الذي رفع من اعلام العدل ما انتكس واحيا من رسوم الاستقامة ما اندرس فانا بمقتضى ما خوله الله من الحزم الناجح والرأى الراجح نؤمل أن نرى منه لا سيما بعد اطلاعه على احوال أوربا بالعيان وتطبيقها على ما كان معلوما لديه بالبيان مزيد العناية بكل ما يتيسر به اطلاق الحرية على الوجه الاكمل

الا كمل باعانة رجال دولته وعلمائها المتعاضدين على انجاح مصالح الدين والوطن والعارفين بأسباب التقدم ماظهر منها ومابطن

ثم ان من عوائق نجاح التنظيمات فى سائر الممالك الاسلامية تقاعس الدول الاوروباوية عن ادخال رعاياهم المستوطنين بها تحت احكامها استنادا للشروط القديمة التى لاتليق بهذا الوقت بل لاينبغى أن تسمى شروطا لانبنائها على مايخل بالشرط وعلى فرض تسليم بعض الشروط وتسليم مايوجب دوامها فانهم لايقفون عند نصها بل يستخرجون منها ماليس فيها مما هو مناف لحقوق المساواة بين الامم ولحقوق سلطنة الارض على كل واردلها يعنى ان من دخل مملكة من الممالك فلابد أن تجرى عليه أحكامها وادعاء بأن معارف حكام الاسلام غير كافية لحفظ حقوق رعاياهم وان كراهيتهم للنصارى تحملهم على الحيف عليهم والجواب عن الدعوى الاولى ان مدعيها لايمكن أن يظن به تعميمها فى حكام المسلمين مطلقا أعنى سواء كانوا حكام شريعة أوسياسة لما هو معلوم عند كل عاقل خصوصا من هو منصف ان علماء شريعة الاسلام فى غاية المعرفة بأحكامها أصولا وفروعا فلم يبق الا أن مريد هذا المدعى حكام السياسة منهم وهذا غير مسلم لما هو ظاهر من بطلان دعوى من يدعى جهل جميع أهل مملكة من الممالك بحيث لايوجد بها من يقوم باعباء احكام تنظيماتها نعم هناك شئ واحد وهو ان جميع الامور فى ابتدائها قبل التمرن عليها والاعتياد بها يقع فيها نوع اضطراب وارتباك حتى يحصل الاستئناس بها وتأخذ مأخذها وهذا امر طبيعى لايقدح به فى التنظيمات فانا نرى دول أوروبا لم تتمكن من أول الامر حاصلة

على هذا النجاح فى تنظيماتها المشاهد لها اليوم وانما حصلت على ذلك بواسطة اعانة السكان اياها على اجرائها بعدم المخالفة والشقاق اذ بدون ذلك لا يطمع فى الحصول على شئ من نتائجها بل لم نزل نرى الى الآن تفاوت الدول المذكورة فى تهذيب تنظيماتها ومعارف حكامها وعفتهم ولم يمنع هذا التفاوت دخول المتقدم منهم فيها تحت احكام المتأخر فلم يبق حينئذ الآن نقول ان هذه الدعوى مجرد توهم وليست مستندة الى شئ من الادلة والتجارب لأنه لم يدخل احد من رعاياهم تحت احكام تنظيماتنا حتى يلحقه الضرر منها بل لنا ان نقول انها مجرد مكابرة وأما دعوى الكراهية فلا يخفى انها بعد تسليمها مشتركة الالزام اذ للمسلمين ان يظنوا ان النصارى ايضا تحملهم العداوة على الحيف عليهم وقت حلولهم ببلدانهم لكن الحق ان العداوة الدينية لا تستميل الحاكم عن الانصاف المؤسسة عليه الشريعة وعن الوقوف مع الحق حيث يجب حتى لو وجب على الحاكم نفسه لانصف طالبه منه كائنا من كان عملا بما هو من قواعد الدين الذى هو أعظم وازع حتى لم يبق معه لايثار النفس اثر فقد ورد ان زيد بن سعنة جاء قبل اسلامه يتقاضى من النبى صلى الله عليه وسلم دينا له فجذبه من ردائه حتى أثر فى عاتقه الشريف ثم قال انكم يا بنى عبد المطلب قوم مطل فانتهره عمر وشدد عليه فى القول حيث لم يتوخ الرفق فى الطلب فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم انا وهو كنا أحوج الى غير هذا منك يا عمر تأمرنى بحسن القضاء وتأمره بحسن التقاضى ثم قال لقد بقى من أجله ثلاث وأمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعا لما روعه فكان سبب اسلامه رضى الله عنه وورد ايضا ان يهوديا أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطلب دينا

كرم الله وجهه فى حق وكان على عنده فقال له عمر قم يا أبا الحسن واجلس مع خصمك فرئى فى وجهه على الغضب فلما انفصلت النازلة قال له عمر ما معناه تغضب لطلب ان تساوى خصمك فقال له على ما غضبت لذلك وانما كرهت تكنيتك لى بحضر خصمى فالحاكم اذا كانت ديانته تلزمه الاتباع للشريعة بمقتضى الوازع الدينى والاقتداء بمن سلف من الخلفاء الراشدين الذين هم نجوم الاهتداء كيف يتوهم منه ترجيح جانب المسلم على غيره وبعد هذا لم يبق لمن له انصاف من الاوروباويين أن لا يرى فيما ذكرناه ضمانة كافية لحفظ الحقوق كما انه لا يتأتى له أن يرى امكان اجراء القوانين على وجه يثمر النتائج المقصودة منها مع امتناع بعض السكان من المساواة فيها لاسيما والممتنع بيده غالب الصناعات والمتاجر ثم انهم لم يكتفوا فى التعطيل بذلك الامتناع حتى صار بعضهم ينفر رعايا بعض الممالك الاسلامية من قبول التنظيمات التى رام ملوكها تأسيسها بأن يلقوا لهم ان هذه التنظيمات لا تليق بحالكم فرجوعكم الى ما كنتم عليه أولى بكم مع ان ذلك مخالف لقواعد سياسة بلدانهم وبعضهم يقول لهم ان الحرية التى منحتموها من دولتكم لا تفى بحفظ حقوقكم مع انها فى الواقع اكثر مما منحتموها بلدانهم فلذلك نضطر ان نعتقد أن لا داعى لذلك الا قصد دوام التحير فى الممالك الاسلامية لتعطيل نجاحها وبالجملة فسياسة الدول الاوروباوية فى ممالكنا متناقضة فان منهم من ينصح بعض الممالك بالاعانة على التراتيب المناسبة ومنهم من يعطل ذلك بتلك المملكة ويبذل النصيحة المذكورة لغيرها على حسب اختلاف اغراضهم

هذا وان سياسة غالب الدول الاوربية ولو كانت كما ذكرنا لكن من الحق أن نقول فى خصوص مبحث الشروط انا رأينا عند المحادثة مع رجال بعض الدول الغربية منها انهم يسلمون عدم لياقة تلك الشروط بهذا الوقت ولا يمتنعون من تبديلها بما يناسب لكنهم يطلبون منا قبل ذلك اعطاء الضمانة الكافية فى حفظ حقوق رعاياهم بترتيب مجالس للحكم وتمشيتها مدة من الزمان حتى يثبت عندهم بالتجارب حسن اجراء الاحكام بحيث يتيسر لهم تسليم رعاياهم على التدريج بحسب ما يرونه من نجاح التراتيب حتى يتم دخولهم تحت احكامنا ونحن نقول لما كان بقاء حال الاجانب على ما هو مشاهد اليوم مضرا بالممالك الاسلامية والدول الاوربية لا تساعف على تبديل الشروط الا بما ذكرناه وجب على الدول الاسلامية السعى فى ازالة هذا الضرر باعطاء تلك الضمانة وابرازها للخارج ومن العوائق للتنظيمات وهو أعظمها تعرض بعض المتوظفين فى تأسيسها واجرائها المالهم فى تعطيلها من المصالح الخصوصية التى منها دوام تصرفاتهم فى الخطط بلا قيد ولا احتساب هذا وان الامة الاسلامية لما كانت مقيدة فى افعالها الدينية والدنيوية بالشرع السماوى والحدود الالهية الواردة على الميزان الاعدل المتكفلة بصالح الدارين وكانت ثمة مصالح تمس الحاجة اليها بل تتنزل منزلة الضرورة تحصل بها استقامة أمورهم وانتظام شؤنهم لا يشهد لها من الشرع أصل خاص كما لا يشهد برده ابل أصول الشريعة تقتضيها اجمالا وتلاحظها بعين الاعتبار فالجرى على مقتضيات مصالح الامة والعمل بها حتى تحسن أحوالهم و يحرزون قصب السبق فى مضمار التقدم متوقف على الاجتماع وانتظام طائفة من الامة ملتئمة من حملة الشريعة

ورجال

ورجال عارفين بالسياسات ومصالح الامة متبصرين فى الاحوال الداخلية والخارجية ومناشئ الضرر والنفع يتعاون مجموع هؤلاء على نفع الامة بجلب مصالحها ودرء مفاسدها بحيث يكون الجميع كالشخص الواحد كما قال عليه الصلاة والسلام المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا وكما قال صلى الله عليه وسلم المؤمنون كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد فرجال السياسة يدركون المصالح ومناشئ الضرر والعلماء يطبقون العمل بمقتضاها على أصول الشريعة وأنت اذا أحطت خبرا بما قررناه علمت ان مخالطة العلماء لرجال السياسة بقصد التعاضد على المقصد المذكور من أهم الواجبات شرعا لعموم المصلحة وشدة مدخلية الخلطة المذكورة فى اطلاع العلماء على الحوادث التى تتوقف ادارة الشريعة على معرفتها ومعلوم ان ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب وبيان ذلك ان ادارة أحكام الشريعة كما تتوقف على العلم بالنصوص تتوقف على معرفة الاحوال التى تعتبر فى تنزيل تلك النصوص فالعالم اذا اختار العزلة والبعد عن أرباب السياسة فقد سد عن نفسه أبواب معرفة الاحوال المشار اليها وفتح أبواب الجور للولاة لانهم اذا استغنوا به فامتنع صاروا يتصرفون بلا قيد نعم يعاب على العالم شرعا وعقلا التكلف فى الدين والتمحل فى النصوص الظاهرة فى خلاف ما أريد منها وارتكاب الاقوال الضعيفة ليوافق الاهوية والاغراض لا لاجل مصالح تتنزل منزلة الحاجة والضرورة حتى ينقلب ذلك الضعيف قويا وحيث كانت ادارة المصالح السياسية مما لا يتيسر لغالب الولاة اجراؤها على الاصول الشرعية لاسباب شتى يطول شرحها وتقدمت الادلة على ما يترتب على ابقاء تصرفاتهم بلا قيد من المضار الفادحة رأينا ان

العلماء الهداة جديرون بالتبصر في سياسة أوطانهم واعتبار الخلل الواقع في أحوالها الداخلية والخارجية واعانة أرباب السياسة بترتيب تنظيمات منسوجة على منوال الشريعة معتبرين فيها من المصالح احقها ومن المضار اللازمة أحقها ملاحظين فيما يبنونه على الاصول الشرعية أو يلحقونه بفروعها المرعية ذلك المقال المنسوب لعمر بن عبد العزيز تحدث للناس أقضية بحسب ما أحدثوه من الفجور وما في معناه من أدلة ان الشريعة لا تنسخها تقلبات الدهور ومن تصفح رسالة استاذ المشايخ الحنفية ومحط رحال الاستفتاء بالديار التونسية من لم يزل على نقوله وافهامه المعول الشيخ سيدي محمد بيرم الاول وجد بها من الادلة ما يشهد لما ذكرناه فانه عرف السياسة الشرعية بأنها ما يكون الناس معه أقرب الى الصلاح وابعد عن الفساد وان لم يضعه الرسول ولا نزل به الوحي ثم أشار الى ذم ما كان من التصرفات السياسية في احد طرفي التفريط والافراط بقوله ان من قطع النظر عنها الا فيما قل فقد ضيع الحقوق وعطل الحدود واعان اهل الفساد ومن توسع فيها فقد خرج عن قانون الشرع الى انواع من الظلم ثم قال ونقل ابن قيم الجوزية عن ابن عقيل مخاطبا لمن قال لا سياسة الا ما وافق الشرع ان اردت بقولك الا ما وافق الشرع أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح وان اردت لا سياسة الا ما نطق به الشرع فغلط وتغليط للصحابة رضي الله عنهم وسرد امثلة من سياساتهم ولابن قيم الجوزية هنا كلام حاصله ان امارات العدل اذا ظهرت بأي طريق كان فهنالك شرع الله ودينه والله تعالى أحكم من أن يخص طرق العدل بشئ ثم ينفي ما هو أظهر منه وأبين وسئل القرافي عن الاحكام المرتبة على العوائد اذا تغيرت تلك العوائد هل تتغير

الاحكام لتغيرها أو يقال نحن مقلدون وليس لنا احداث شرع جديد لعدم أهليتنا للاجتهاد فأجاب بأن اجراء الاحكام التي مدركها العوائد مع تغير تلك العوائد خلاف الاجماع وجهالة في الدين بل الحكم التابع للعادة يتغير بتغيرها وليس هذا بتجديد اجتهاد من المقلدين بل هي قاعدة اجتهد فيها العلماء وأجمعوا عليها انتهى وعدّ ابن القيم من الجهل والغلط الفاحش توهم ان الشريعة المطهرة قاصرة عن سياسة الامة ومصالحها قال ولاجل هذا الغلط تجرأ الولاة على مخالفة الشرع فخرجوا عن حدود الله الى أنواع من الظلم والبدع في السياسة يعني وسبب ذلك تمسكهم أو تمسك العلماء الذين يفتونهم بظواهر النصوص فيضيقون ما وسعه الله عليهم فيضطرون الى خلع القيود وهتك الحرمات والحدود وبناء على ما تقرر يظهر ان اللائق بأولئك الهداة ان يتوسطوا بين التفريط والافراط بحيث لا يبعدون من رجال السياسة بعدا يتسبب عنه تبعيد تصرف الولاة عن الشريعة وما لا يدرك كله لا يترك قله ولا يقربون منهم قربا ينشأ عنه تقريب شهواتهم بتسهيل طرقها لهم

وحيث تقدم بيان الادلة الكافية لوجوب التنظيمات السياسية التي لو لم يكن الا تنفير الاجنبي والمتوظفين منها لكان كافيا في الدلالة على حسنها ولياقتها بمصالح المملكة كان من أهم الواجبات على أمراء الاسلام ووزرائهم وعلماء الشريعة الاتحاد في ترتيب تنظيمات مؤسسة على دعائم العدل والمشورة كافلة بتهذيب الرعايا وتحسين أحوالهم على وجه يزرع حب الوطن في صدورهم ويعرّفهم مقدار المصالح العائدة على مفردهم وجمهورهم غير معتبرين مقال بعض المجازفين ان تلك

التنظيمات لا تناسب حال الامة الاسلامية مستندا فى ذلك الى أربع شبه الاولى ان الشريعة منافية لها الثانية انها من وضع الشئ فى غير محله لعدم قابلية الامة لتمدنها الثالثة انها تفضى غالبا الى اضاعة الحقوق بما تقتضيه من التطويل فى فصل النوازل كما يشاهد ذلك فى سائر الخطط القانونية الرابعة انها تستدعى مزيد الضرائب على المملكة بما تستلزمه من كثرة الوظائف لاداراتها المتنوعة

ولا يخفى على المتبصر ان جميع ما استند اليه مردود أما الشبهة الاولى فيكفى فى ردها ما اسلفناه مما يدل على ان الشريعة تقتضى التنظيمات لاسيما بعد اعتبار أحوال ولاة الوقت وعلى فرض ان يوجد فى التنظيمات بعد تأسيسها وتهذيبها من رجال العلم والسياسة شئ لا مسوغ له فلا مانع من تبديله ولا يكون توقعه سببا فى ترك تأسيس التنظيمات من اصله وأما بقية الشبه فلو أردنا الاكتفاء فى ردها بما تقدم لكفى ايضا لكن رأينا أن نزيدها ايضاحا وبيانا فنقول أما الشبهة الثانية فجوابها ان عامة غيرنا الذين بلغوا بالتنظيمات غاية التمدن كانوا فى مبدأ الامر أسوأ حالا من عامتنا وان كنا نعلم ان معارفنا الدنيوية الآن أقل مما أنتجته التنظيمات لبعض الامم الاورباوية لكن عند التأمل يثبت عندنا ان الامة الاسلامية بمقتضى ما شهد به المنصفون من رجحان عقول أواسط عامتها على عقول غيرها من الامم تقتدر أن تكتسب بما بقى لها من تمدنها الاصلى وبعاداتها التى لم تزل مأثورة لها عن اسلافها ما يستقيم به حالها ويتسع به فى التمدن مجالها ويكون سيرها فى ذلك المجال أسرع من غيرها كما اننا من كان اذا أذكيت حريتها الكامنة بتنظيمات مضبوطة تسهل لها التداخل فى أمور السياسة وذلك ان الحرية والهمة الانسانية

اللتين هما منشأ كل صنع غريب غريزتان فى أهل الاسلام مستمدتان مما تكسبه شريعتهم من فنون التهذيب بخلاف غيرهم ممن لم تحصل لهم الغريزتان المذكورتان الابإجراء التنظيمات فى بلدانهم نعم من الواجب على مؤسس أصول الحرية السياسية اعتبار حال السكان ومقدار تقدمهم فى المعارف ليعلم بذلك متى يسوغ اعطاء الحرية التامة ومتى لا يسوغ ومتى يعمم المقدار المعطى فى سائر السكان ومتى يخص بمن قامت به شروط معتبرة ثم توسيع دائرتها بحسب نمو اسباب التمدن شيأ فشيأ ثم لو سلم عدم القابلية للتنظيمات وان الامة كما يزعمه اولئك القادحون بمثابة الصبي غير الرشيد الذى يلزم التقديم عليه فهل ينهض لهم دليل على جواز ان تكون تصرفات المقدم خالية عن مراعاة مصلحة المقدم عليه وهل تتيسر تلك المراعاة بدون توقع احتساب مؤسس على الشرع واما الشبهة الثالثة فجوابها ان التطويل الذى يمكن عروضه فى فصل النوازل لا يرجع الى قسمين لانه اما ان يكون ناشئا عن صعوبة تصور النازلة وتعيين ما ينطبق عليها من النصوص المتجاذبة لها او يكون ناشئا عن قصور المتوظفين أو تقصيرهم اما القسم الاول فلا يتشكى منه الا الجاهل او المتجاهل وذلك ان اعطاء النوازل حقها من التأمل حتى يتضح عند الحاكم وجه الحكم يستدعى فسحة ضرورية لفهمها على الوجه المطلوب وتلك الفسحة المتفاوتة بتفاوت النوازل فى التشعب من لوازم البشرية فى حق كل من الحاكم والمحكوم عليه اذ الحكم سواء كان مبنيا على القواعد الشرعية أو القوانين العقلية لا يكون حكما معتدا به الا اذا كان مسبوقا بأخذ المحكوم عليه مهلة لتحرير حججه التى يدافع بها عن نفسه وأخذ الحاكم مثلها لامعان النظر فيها

وتعيين ما ينطبق من الاصول عليها فالحاكم اذا انقص من احدى المهلتين شيأ فقد ظلم المحكوم عليه ونفسه وحيث كان التطويل المشار اليه طبيعيا للنوازل ومما تعاضد على لزومه الشرع والعقل يسوغ لنا أن نقول انه لامنشأ للقدح به فى التنظيمات الاارادة تنفير الاهالى منها بتحسين ما تعودوه من حكامهم السياسية الذين كثيرا ماينشرلديهم من النوازل مالونشر لدى احذق القضاة لاحتاج فى تصوره الى عدة أيام فيبادرون الى فصلها فى عدة دقائق بحكم لايتعقب بل لوفرض الترخيص منهم فى تعقبه لما أمكن ذلك حيث لم يكن الحكم مسجلا بتطهير لان التعقب يستدعى استناد الحكم المتعقب الى شئ من الادلة يمكن اطلاع المتعقب عليه بحيث يجد محلا للتخطئة فى تنزيل الحكم أونحو ذلك اذا كان الحكم مسجلا ومايصدر من هؤلاء حكم شفاهى غير معلل باستناده الى شئ فى الخارج فهو لايخلو اما أن يكون أمرا اتفاقيا بحسب مايسنح لاحدهم فى ذلك الوقت ولذلك ترى كثيرا من النوازل متفقة فى المعنى وأحكامها مختلفة أومستندا الى دليل لايتجاوز صدر ذلك الحاكم فلايمكن الاطلاع عليه وفى الحالتين لايمكن التعقب ثم انا لاننكر أن يقع فى ابتداء العمل بالتنظيمات شئ من التطويل زائد على المقدار الطبيعى ناشئ عن عدم التعود بها والتمرن عليها لكن نرى الخطب فى ذلك سهلا لانه مما يزول باعانة الله فى أقرب وقت عند حصول ملكة التجريب وتخفيف اعمال الحكام فى الاحكام الخفيفة ارتكابا للاخف الضررين وتحريض الدولة سائر موظفى السياسة على المبادرة باتمام مأمور يترتم بجلب المدعى عليه ونحو ذلك مما تتوقف عليه الاحكام حتى لايبقى من أسباب التطويل الامايستدعيه حال النازلة على انا نقول تنازلا مع هؤلاء المنفرين

ان

ان الغرض من التنظيمات ليس محصورا فى فصل النوازل الشخصية على وجه الانصاف الأمول منها بل هناك مصالح أخرى من أهمها ضبط كليات السياسة القابض لايدى الولاة عن الجور فاين مضرة التطويل فى النوازل الجزئية من مضرة اطلاق أيدى أولئك الولاة فى التصرف فى الابدان والاعراض والاموال فهذه الشبهة على فرض نهوضها الا تنتج الا تعطيل مجالس النوازل الشخصية أما ضبط أصول السياسة الذى هو أساس خير المملكة فلا نظن دليلا ينهض على تعطيله بوجه من الوجوه وأما القسم الثانى فظاهر انه لا يقدح به فى حسن التنظيمات فى نفسها وانما يتوجه التشكى من مضرته على الدول حيث لم تعتن النظر فى أحوال المتوظفين وتعتنهم بمزيد المراقبة والتجربة

وبيان ذلك ان انا نرى المتوظفين فى الممالك الاسلامية على ثلاث فرق الفرقة الاولى يستحسنون ترتيب التنظيمات استحسانا صادقا ويؤثرون ما تنتجه من الهمة والحرية وتوفير مصالح الرعية على ما عسى أن يكتسبوه بالاستبداد من المنح الخصوصية الفرقة الثانية يجهلون مصالح التنظيمات بحيث لا يرون كبير فرق بينها وبين السيرة الاستبدادية بل يعدونها من بدع آخر الزمان ويؤثرون عليها البقاء على ما كان ولا منشأ لذلك الا التقصير فى عدم الاطلاع على نتائج التنظيمات فى غالب المعمور الفرقة الثالثة لا يجهلون منافع التنظيمات وتوفيرها لخير البلاد والدولة ولكنهم يؤثرون على ذلك فوائدهم الشخصية التى تتوفر لهم بالاستبداد ولا منشأ لذلك الا نقص الديانة والهمة والانسانية وعدم ملاحظة العواقب لدنيوية والاخروية اذ تمهد هذا فنقول ان التنظيمات وان بلغت بحسن الترتيب والترتيب غاية المطابقة لمقتضى

العمال لا تظهر فائدتها المقصودة من تأسيسها الا اذا كان المكلفون باجرائها من الفرقة الاولى فهم الذين توكل مصالح العباد الى أمانتهم ويعتمد فى تأسيسها وتمشيتها على اعانتهم وأما الفرقتان الاخيرتان فلا يحصل من تكليفهما الا خلاف المقصود لاسيما الفرقة الثالثة لمزيد انبعاث همتها الى تعطيل التنظيمات فعلى الدولة التى عزمت على تأسيسها اذا علمت ماذكر من أحوال الفرقتين المذكورتين أن لا تنيط بأمانتهما حفظها ولا ادارتها حتى يثبت عندها بالتجارب صدق رجوع الاولى الى استحسانها بالقلب والقالب وايثار الاخيرة المصالح العمومية على الحظوظ الشخصية واكتسابها المروءة الانسانية المانعة من قبول الانسان خطة لا يباشرها بصدق نية وبالجملة فاسناد الشئ الى عهدة متمنى زواله من أقوى موجبات اختلاله واضمحلاله وأما الشبهة الرابعة وهى اقتضاء التنظيمات لمزيد الضرائب على المملكة فجوابها ان هذا القائل المسكين لو علم ما ينشأ عن حالة الاستبداد وحالة التقيد بالتنظيمات لما صدرت منه هذه القولة الوهمية المبنية على عكس القضية فان حالة الاستبداد هى التى تقتضى كثرة الضرائب اذ يؤخذ فيها اللازم وغير اللازم ليصرف فيما هو فى الغالب غير لازم بخلاف حالة التقيد فانها بضبط الدخل وصرفه فى خصوص الامور اللازمة لا تكلف فيها أهل المملكة الا بضرائب تسمح بها نفوسهم حيث يرون لزومها وصرفها فى مصالح وطنهم فاذا قابلنا ما يلزم صرفه على اجراء التنظيمات بما ينقص بها من المصاريف والخطط غير اللازمة التى لم تكن محدودة قبل التنظيمات بعدد ولا ضابط معيار تدفع بها من المظالم التى لا تقف بدونها عند حد لم يبق للمنصف شك فى أن التنظيمات على فرض كثرة خططها من أقوى أسباب الاقتصاد

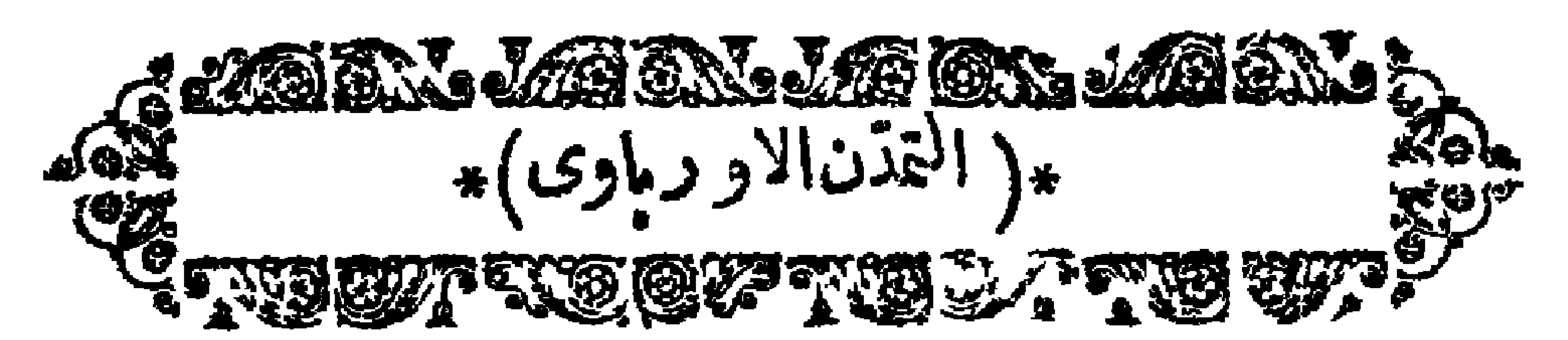
والتوفير

والتوفير لاسيما والمباشرون لاستخلاص الجبابي متقيدون بالقوانين أيضا فشتان بين حالة المستبد الذي يأخذ ويعطي بمقتضى الشهوة والاختيار وحالة المتقيد بالقوانين الذي يفعل ما ذكر بمقتضاها متوقعا تعقب آراء كثيرة تجعل من تنزيلها اياه منزلة القاصر في تصرفه فضلا عن الخائن فيه فبان بهذا ان المصاريف البالغة التي تكلف المملكة ما لا طاقة لها به انما تكون حالة الاستبداد وان الاقتصاد الذي هو منشأ خيرها انما يحصل بضبط سائر التصرفات بقيود التنظيمات وفي هذا المقدار كفاية لمن تبصر في الفرق بين الحالتين ولو أطلقنا عنان القلم في بيان حال بعض الدول في مصاريفها وفي سيرة المباشرين لها قبل تأسيس التنظيمات ومعها وبعدها حين تيسر تعطيلها لاهل الاغراض والشهوات من ارباب الخطط ورجعوا للتصرف بلا قيد ولا احتساب باعانة أمثال هذا القادح لتبين له ان قلة معرفته بنتائج التنظيمات هي التي غرته وأغرته على القدح فيها بمثل ما أسلفناه وعلى اعانة الساعين في تعطيلها لفوائدهم الخصوصية المضرة بالدولة والمملكة لكن سعة مجال الكلام في ذلك تخرجنا عن المقصود * هذا واذا كانت الدولة العثمانية التي هي مركز الخلافة الاسلامية مع ما أشرنا اليه سابقا من العوائق الخاصة بها لم تزل مجتهدة في رفع تلك العوائق اجتهادا يرجى منه تمام نجاحها بتأسيس ما يتم به خير ممالكها وحفظ حقوق رعاياها فغيرها احرى وأولى لانتفاء تلك العوائق عنها فلا يظهر لملوكها سبب قوي في الامتناع الا حب الاستبداد الموصل للشهوات ثم نقول كما كان ترتيب التنظيمات واجبا على من تقدم مراعاة لحال الوقت فمن اللائق أيضا بمن يدعي من الدول الاوروباوية المتمدنة حب الخير للنوع الانساني

ان يعينوا في هذا الشان ولو بالكف عن التعطيل خصوصا من له
فائدة في دوام استقلال الامة الاسلامية هذا ما دعت الحاجة الى تحريره من
أسباب التقدم والتأخر للامة الاسلامية مخصاصلا من الكتب الاسلامية
والافرنجية وبه يعلم من لاخبرة له بأحوال الاسلام من الاوربا ويين
وغيرهم ما كان للامم من التقدم في المعارف وغيرها وقت نفوذ الشريعة
في أحوالها ودخول الولاة تحت قيودها وان الشريعة لاتنافي تأسيس
التنظيمات السياسية المقوية لاسباب التمدن ونمو العمران كما يعتقده
الكثير ممن ذكرنا حتى صاروا يدرجون ذلك في صحف أخبارهم
ومستحدثات تآليفهم وأسبابا لذلك يمكن اعتذارهم به عن سر بان ذلك
لاعتقادهم ما يشاهدونه في ممالك الاسلام من اختلال التصرفات
والاحكام وما نشأ عنه من سوء حال الرعايا وهذا ونحوه من مضار تقصير
الامراء في حماية الشريعة واستبدادهم بالتصرف بمقتضى شهواتهم مع
اغفال العلماء انتقادهم بما أهملوه لاعراضهم عن مقتضيات أحوال
الوقت كما أشير اليه سابقا ولا يخفى ان التمادي على مضادة المدنية مما يعظم
خطره وتخشى عواقبه سمعت من بعض أعيان أوربا ما معناه ان التمدن
الاوربا وي تدفق سيله في الارض فلا يعارضه شيء الا استأصلته قوة تياره
المتتابع فيخشى على الممالك المجاورة لاوربا من ذلك التيار الا اذا حذوه
وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية فيمكن نجاتهم من الغرق وهذا
التمثيل المحزن لاهل الايمان مما صدقه العيان والتجربة فان المجاورة
لها من التأثير بالطبع ما يشتد بكثرة المخالطة الناشئة عن كثرة تتابع
الصناعات بحيث تجيء لاخراجها والانتفاع بأثمانها وهو سبب ثروتهم
كما تقدم ولنقتصر على هذا المقدار من الاشارة الى أسباب التقدم

والتأخر

والتأخر فى الامة الاسلامية ونرجع الى ذكر أطوار التمدن الاوربارى من أيام الامبراطور شارلمان الى هذا التاريخ على وجه اجمالى يقتدر به على الاحاطة بأنواع التمدن المكتسب بالمعارف ويستفيد منه من يريد معرفة الاشخاص الذين اشتهروا بكشف كنوز الطبيعة وأسرار التهذيب ورسوم معالم السياسة



(التمدن الاوربارى)

اعلم ان الامبراطور شارلمان الذى أسس دعائم السياسة والاحكام كان أشهر ملك ظهر بأوربا من وقت سقوط الدولة الرومانية الى سقوط دولة الاغريق التى كان تخت مملكتها القسطنطينية العظمى وهو الذى أدخل العلوم والاعمال لممالكه وكان يفنى غالب أوقاته فى قراءة العلوم وكان مجلسه محفوفا بالعلماء وأسس بباريس مدرسة جامعة لسائر المعارف ويمثل هاته المآثر حصل له من السمعة فى أقطار الارض ما استمال الخليفة هارون الرشيد الى محبته ومهاداته بتحف منها منقالة لم تزل الى الآن فى أحد قصور فرنسا ثم بعد وفاة الامبراطور المذكور وفقدان تدبيره تعطلت تلك المصالح وتنازلت أوربا وبقيت مغمورة فى دجى الجهل مدة ستمائة سنة وفى هاته المدة كانت موطئا لاقدام البرابرة الذين كانت دولهم تتداول عليها ومع ذلك الفشل التام فان أهل الكنيسة منهم كانوا محافظين على كتب المعارف وعلى اللسانين اللذين لولاهما ما انتفع بتلك الكتب وهما اليونانى واللاتينى فالناس ممنونون لهم بذلك ثم فى القرن الحادى عشر الذى هو خامس قرون الهجرة النبوية ظهرت

مبادي علوم وصناعات وهندسة في الابنية فانشئت بها هياكل
في الناحية الغربية من اوربا واخذ علم الفلسفة في النمو بين محاورات
كلامية ومنازعات جدلية وظهر حزب الفرسان الذين اشتهروا باسم
الكفاليير وهم جماعة من وجوه الناس تحالفوا على أن يحاربوا في الله
المدافعة عن حرية النسوة والمستضعفين من سائر الاهالي وأن لا يلاحظوا
في أفعالهم لاسيما المحاربة الامقتضيات الشرف الانساني وعلو الهمة
ولو مع أعدى الاعادي مثلا يرحمون من يسترحمهم ولا يجهزون على جريحهم
ولا يبتزون سلب قتيلهم ومن أواخر هذا القرن الى أواسط القرن الثالث
عشر كانت حروب الصليبيين مع المسلمين لافتكاك بيت المقدس
وقطع استيلائهم على الامم في زعمهم وانما أشرنا لهاته الحروب والفرسان
لبيان ما لهما من الدخل في التمدن الاوروباوي فان مؤرخيهم يقولون ان
تلك الحروب وان هلكت فيها نفوس عديدة وأموال غزيرة بدون
الحصول على المقصود بالذات فانها أعقبت نتائج نافعة لهم منها انهم من
ذلك الوقت شرعوا في ترتيب العساكر وتعلموا بمواصلتهم لاهل المشرق
صناعة التجارة والزراعة ونحو ذلك وتخلقوا باخلاق الحضر وتعودوا
بالاسفار لاستكشاف أحوال الاقطار فاطلعوا على أحوال آسيا
المتوسطة وأحوال الصين كما ذلك مبين بتأليف ماركو بولو وبالجملة
فبالسبب المذكور وهو مخالطة الاوروباويين للامة الاسلامية
المتقدمة عليهم في التمدن والحضارة كان ابتداء التمدن عندهم
لاسيما في القرن الثالث عشر ثم تهذب حتى وصل الى ما هو مشاهد اليوم
وانتهت اذ ذاك رئاسة العلوم والآداب والفلسفة الى صان برنار

بفرنسا وصان توماس بايطاليا والبرت الكبير بالمانيا وريموند و لولو باسبانيا وجن دونسكوت بانكلترة وظهرت الشعراء والمهندسون والكنائس الاصولية والهيا كل الفخيمة المنسوبة للقرون المتوسطة وفى القرن الرابع عشر نالت تلك الامور شرفها خصوصا فى ايطاليا فان دانتي حرر اللسان الطلياني وقرره فى شبه اراجيز تخلد ذكرها وجيوتو وتشيمابوى احيا صناعة الدهن وبترار كا و بكانشو سلكا طريقة دانتي فى النظم والنثر ثم فى اواسط القرن الخامس عشر وهو الوقت الذى لا ينسى اغرابة حوادثه اخترع غتمبرغ من اهل ميانس بالمانيا طبع الكتب الذى حصل به من تنمية مواد العلوم وسرعة انتشارها فى اقطار الارض ما يغنى فيه العيان عن البيان وأول ما طبع منها كتاب فى اشعار اللغة اللاتينية التى عاد الى استعمالها اهل ايطاليا وتكاثرت بها اشعارهم بعد ان تناسوها وهى وان لم تأخذ مأخذها فى التوصل بها الى المعانى الدقيقة واللطائف البديعة فقد رجعت الى ما كانت عليه من الطلاوة وحسن السبك ثم أخذ التمدن فى الترقى بمدارج العلوم والاعمال وكانت المزية فى ذلك لجماعة الميدشى الذين كانوا رؤساء الدولة الجمهورية بفلورنسة ثم صاروا أمراءها فهم الذين مهدوا سبلها للناس وكان اشتهارهم بذلك فى القرن السادس عشر المعبر عنه بالقرن الكبير الذى كانت ايامه تضاهى باولئك الرؤساء أيام اغسطوس أول قياصرة الرومان فى الاشعار وحسن هندسة البناء وبديع اشكاله اقتداء بالرومانيين الذين اقتدوا فى ذلك باليونان ومن حوادث القرن الخامس عشر

ان جماعة المدشى المشار اليهم والبابا ليون العاشر الذى هو منهم بحثوا فى الخزائن عن الكتب القديمة وطبعوها لاستكثار نسخها وجعلوا عليها تعليقات نافعة وملاحظات غريبة وبذلك ارتفع عن محاسن الاقدمين القناع الذى تكاثف بتطاول السنين وفى تلك المدة ظهر الشاعران أريوستو وتاسو اللذان أشهرا اللسان الطليانى المستعمل الآن وهما فى الطبقة الاولى من مشاهير تلك اللغة فأولهما خلد ذكره باختراع معان لم يسبق اليها فى الفاظ مهذبة منعذبة والثانى نال شهرة أميرس الشاعر اليونانى وفرجيل الشاعر اللاتينى وبالجملة فاللسان الطليانى أخذ فى ذلك الوقت مأخذه من السلاسة وحسن السبك وألفت به تآليف عديدة فى فنون شتى ومن مشاهير القرن المذكور مكيافلى الذى كان أول من بين القواعد السياسية بعد سقوط الدولة الرومانية وغو يتشرديني الذى بلغ بجودة الفكر وحسن التعبير الى اتقان التصنيف فى التاريخ وفرا باولو الذى اشتهر بالمدافعة عن حرية الوطن بقلم غيور منصف فى ضد سياسة الباباوات الدائرة رحاها على ايثار الشهوات وفى ذلك الوقت ظهر بمملكة اسبانيا التى كانت اكتسبت من المسلمين أنواعا من الظرف كالفروسية واللعب بالرماح وتعاطى المعانى الغريبة من الاشعار الناظمان المجيدان لوبس دفيغا وكالدرون اللذان أظهرا من التراكيب الشعرية ما حسن القاؤه فى المجامع المعدة لتهذيب الاخلاق المسماة عندهم بالتياطرات كما ظهر فى ذلك الوقت عند الانكليز الناظم الشهير شكسبير وهو وان لم يخل كلامه عن الهفوات فله

النفيس من جوهره ويتوصل بفصاحته الى الكشف عن كنه مايروم وصفه والاحاطة بكيفيته الحسية والمعنوية لاسيما فى وصف الحروب بحيث ان سامع كلامه يكون كالمشاهد لما يصفه وأمّا أهل شمال أوربا فلم يشتهروا الى ذلك الوقت بشئ من اعمال الفكر غير أن منهم من لاتنكر منته على العرفان مثل كبرنيك من اهل بولونيا المولود سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة وألف وهو الذى حرّر القول بأن الشمس فى مركز العالم وان الارض والكواكب تدور حولها قيل وليس هو أوّل قائل بذلك وانما الاوّل فيلولاوس أحد تلامذة فيثاغورس وذلك قبل وجود كبرنيك المذكور بألفى عام لكن وقع الانفصال على أن كبرنيك هو الذى ينبغى أن ينسب اليه مزية الابتكار لهذا القول وان انتفع فى الاهتداء اليه بقول فيلولاوس المذكور وممن حرّر الدليل على تلك الدعوى بما يقرب من المشاهدة غليلاو الطليانى وأعانه على ذلك مااخترعه مسيوس من اهل هولاند من آلة البلور التى تكبر الاشياء فكانت مرآته تكبر الشئ مائة وستين مرة زيادة على مقدار جرمه ثم تهذبت تلك الآلة حتى صارت تكبره من ألفين الى ثلاثة آلاف وأكثر ولم تزل تلك الدعوى تترجح عند اهل أوربا الى أن صارت مسلمة لديهم وبواسطة تلك الآلة اطلع غليلاو المذكور على كواكب لم تكن معهودة وهو وتلميذه توريشلى أوّل من عرف وزن الهواء وان طلوع الماء فى الطلنبة مسبب عن ضغط الهواء لسطح الماء وأن نهاية صعوده اثنان وثلاثون قدما حيث ان قوة عمود الهواء النازل على سطح الماء لاتتجاوز المقدار المذكور فلا ينجذب

بهاالماءالى أكثر من ذلك والحاصل ان اهل ايطاليا اغتنموا
فى ذلك الوقت شهرة بالآداب والصناعات المستظرفة المسماة عندهم
بوزار وهى صناعة الدهن والنقش وهندسة البناء والموسيقى وحصلوا
على ما أمكنهم تحصيله من العلوم والفلسفة وأمّا المانيا فقد اشتهر فيها
تيخو براهى وكوبلر فالاوّل أفنى عمره وماله فى طلب العلم واقتناص
شوارده حتى سمى بالمحسن الى العلم والثانى صرف المهجة الى علم الفلك
حتى قيل له صاحب الاحكام وأمّا انكلترة فانها صارت بقرب ذلك
العهد ذات يد فى العلوم الرياضية والحكمة الكلامية وممن اشتهر فيها
فرنسس باكن ذو الفكر الوقاد والجد والاجتهاد وقد صحت تسمية
تأليفه بحالة العلوم الجديدة واستند فى دعاويه فيه الى التجارب المفرغة
فى قالب الاسلوب الفلسفى حتى قيل ان فن الطبيعيات صار بقواعد
الكتاب المذكور كما ينبغى أن يكون وفى القرن السادس عشر امتاز
اهل فرنسا بعلم الاحكام الآتى بيانه واشتهر منهم بذلك عدد كثير مثل
كوجاود وملان وميشال دوليتال الذين عمروا مكاتب الاحكام
والماهر الفصيح فرنل المتسلطن فى علم الطب وامبر وازبرى أعرف
اهل وقته بأحوال الجراحات وفيات الذى اختصر كتاب
الجبر بوضع حروف نائبة عن الاعداد وصيره لعلم المساحة كالمنطق
لسائر العلوم وبيار لسكو الذى هندس بناء اللوفر وفلبار دلورم
الذى هندس قصر مودون وقصر التويلرى والاول والثالث
بباريس يسكن بهما ملوكها والثانى بقربها ثم ان فرنسا وان بلغت
فى هذا الوقت ما بلغته من التمدن والتهذيب وفاقت أمما كثيرة ممن
تقدمها الا انها لم تضاه نظائرها حيث لم يكن اسانها فى ذلك الوقت خالصا

من الشوائب ومن مشاهيرها فى تلك المدة أميو ومارو فالاول فى الانشاء والثانى فى النظم تميزا بسلامة السليقة وقلة التعقيد ومنهم ربلى متقن صياغة مثالب الهجو وموتنان الفيلسوف الذى سهل طرق المعانى واداءها بألفاظ رائقة وشرح ماهية الانسان غير مجمول بعين الرضى على تحسين معائبه ولا بعين السخط على تقبيح محاسنه وفى هذا القرن اشتهر بايطاليا بين أرباب الصناعات وفايل وميكلانج وليوناردو داوينشى وأشخاص آخرون فى صناعة الدهن والنقش والبناء فبهم و بتلامذتهم تجدد البوزار فى سائر نواحى أوربا وفى القرن السابع عشر بلغت العلوم الرياضية والادبية فى أوربا الى الغاية القصوى وذلك بكثرة الادباء الذين غشيهم المعارف حتى صار من كان يعد من مشاهير العلماء فى القرون الماضية يعد من عامتهم فى هذا القرن خصوصا أهل فرنسا الذين ترقوا فى سائر المعارف وتقدموا من عداهم من أهل أوربا فى الفصاحة نظما ونثرا وفى صناعة البوزار المتقدم بيانها فمن مشاهير هذا القرن باسكال المشتهر بفن الحساب والطبيعيات والانشاء ألف كتابا سماه بماترجمته مكاتيب اهل القرى وهو من أشهر ما ألف فى الارسال وتعرض فيه للقدح فى سيرة الجزويت حزب يعرف باليسوعية دأبهم جلب الناس بكل وجه ممكن الى الديانة النصرانية والمدافعة عن السياسة البابوية ومنهم دكارت المعدود فى الفلسفة الاولى من مخترعى العلوم الرياضية باستعمال قواعد الجبر فى المساحة واتقان التصرف فى علم الفلسفة وهو من اشهر العلماء الذين هذبوا اخلاق البشر ثم بوردلو وماسليون اللذان أظهرا فصاحة لم تكن لاحد قبلهما من خطباء ديانتهم ثم بوسوى الذى بلغ

فى حسن التأبين وفى خطبته على التاريخ العام السائرة مسير المثل عند
اهل اوربا درجة لم يبلغها احد بعده ثم بوالوا الذى بين قواعد الشعر
عندهم ثم لابرويار المعدود من السابقين فى علم التهذيب ثم فنلون
صاحب التأليف المشهور المسمى تلماك الجامع لاسباب التهذيب
البشرى ثم كرنيل وراسين اللذان لا يقاسان فى التراجيديا
لأعاظم اليونان وهى محاكاة الحروب والوقائع والكوميديا وهى
محاكاة أمور فى قالب الهزل ثم موليير فى الكوميديات ولافونتين
فى الامثال تقدما من كان قبلهما وفى القرن المذكور ظهر بالمانيا
الحكيم ليبنتس وكان له شهرة فى علم التاريخ والطبيعيات لاسيما
الرياضيات والفلسفة فقد كان له فيهما اليد الطولى وفى هذا القرن
تميز علماء الانكليز عن غيرهم باتقان علم الهيئة والفلك فمنهم هالى الذى
شرح خواص الهواء وأسرار مد البحر وجزره واسرار المغناطيس
وحركات ذوات الاذناب وارتكاب المشاق والاخطار فى تطلب العلم
من نوازح الاقطار حتى بلغ جزيرة صانت الآن فى البحر المحيط ورسم
على صخور رهانر بطة نجوم القسم الجنوبى من الهيئة وبذلك ارتفع شأن
رصد غرينتش فى انكلترة ثم المنجم فلامستيد الذى بين ملاحظات
عديدة فى علم الفلك تلقاها الناس بالقبول ثم نيوطن المشتهر اشتهارا
أنسى به ذكر سابقيه وله تأليف كبير أحدث به فى الفلسفة تغييرا
غريبا وقع من الناس موقع الاعجاب وفى ذلك الوقت ظهر من شعراء
الانكليز درايدن وبوب ومن كتبة الانشاء أدسون وفى القرن الثامن
عشر حازت فرنسا خمسة اشخاص من مشاهير الكتبة بذلوا الجهد
فى ايضاح طرق الفلسفة وتشييد مبانيها وهم فونتنيل الذى انسجمت

مكاتيبه فيها ثم بوفون مشفع افلاطون و بلين الذى كساعلم الفلسفة رقة التعبير فى كتابه الذى خلد ذكره واعرب عن رقة طبعه ودماثة اخلاقه ثم مونتسكيو الذى صرف همته الى كتب السياسة وأبانت تصانيفه عن غاية معرفته بها وكفى شاهدا على ذلك ما كتب فى السبب الذى كبرت به الدولة الرومانية وتعاظمت والذى سقطت به وانقرضت وهو كتاب عجيب يحتوى على تعليقات صادقة وعبارات محررة راشقة وكتابه الآخر المسمى بحكمة القوانين الذى بين فيه الحقوق الانسانية وقسمها الى ثلاثة أقسام أولها الحقوق المعتبرة بين الامم فى خلطتها السياسية والتجرية وثانيها حقوق الدول على رعاياها و بالعكس وثالثها حقوق الاهالى فيما بينهم ثم قسم حالة الدول الى ثلاثة اقسام ايضا الاول الدولة الوراثية خلفا عن سلف المطلقة التصرف بلا قيد الثانى الدولة الوراثية كذلك المقيدة بالقوانين الثالث الدولة الجمهورية المقيدة بالقوانين أيضا والجمهورية عندهم كناية عن انتخاب الامة رئيس الدولتهم يتصرف فى ادارتها بمقتضى القوانين مدة حياته أو لمدة معلومة ثم ينتخب غيره و بين ما ينشأ من الخير والشر عن الاحوال الثلاثة وهو معدود عند أهل اوروبا قانونا صحيحا فى الاحكام ومن تمثيلاته البديعة تشبيه المستبد فى تصرفاته بمن يتوصل لاجتناء الثمرة بقطع الشجرة من أصلها وله فى غير ذلك تآليف عديدة تلقاها الناس بالقبول و رابعهم دلمبر صاحب التاليف المحلى بقلائد القواعد الحاوى باوضح بيان ما كاد يأتى على سائر الفوائد وخامسهم كنديلياك الذى بسط اشعة التحقيق على تأليفه

لوك الانكليزى فى علم الفلسفة ومن مشاهير القرن الثامن عشر ولتير وهو ممن اخذ راية الكتابة باليمين والشمال واشتهر فى سائر فنونها اشتهار الدجال فى الاجيال ولولم يحمله انحلال العقيدة على عدم احترام الشرائع والديانات لكانت شهرته اتم والنفع بمعارفه اعم ومنهم جانجاك روصو وهو نظير ولتير فى الشهرة وله من حسن التعبير مالا تستقر معه الاوهام وهذان الكاتبان المجيدان هما اللذان انشأ ثورة أهل فرنسا سنة تسع وثمانين وسبعمائة والف الموافقة لسنة مائتين وألف هجرية وهيأ اسبابها واستعجلا وقوعها ومنهم جان باتيست روصو صاحب الاشعار والمعانى الرائقة ومنهم لوساج مؤلف جلبلاس الكتاب المحتوى على المقامة الفلسفية الذى هو من أحسن ما الف فى بابه ومن مشاهير هذا القرن لناوس من أهل السويد اشتهر فى الطبيعيات وفيه ظهر بالمانيا الشاعران غوتى وشلر فالاول فاق اقرانه فى محاسن الآداب والثانى استحق اسم المجدد لتياطرات الالمان فانه ركب العابا معتبرة ينشد فيها مستطرفات الاشعار وله تآليف فى التاريخ شاهدة بتقدمه فى ميدان الافكار كما ظهر فيه بانكلترة المؤرخون الثلاثة الذين تشرف بهم وطنهم وهم غيبون وهيوم وروبرتسون ثم ظهر بها أيضا آدم سميث الذى فاق اقرانه فى علم الرياضيات والاقتصاد السياسى والمعلم الطبيعى بانكس والجراحيان وليم هنتر واخوه جن وكاوندش الذى حلل اجزاء الماء والفلكيون برادلى وهرشل و يحيى فرانكلن الذى خلد اسمه ببيان الامور المتعلقة بالجاذب المغناطيسى ومن مشاهير انكلترة فى القرن المذكور اركرايت الذى اخترع آلة غزل القطن

ثم خرج عن صف العامة ثلاثة اشخاص استنبطوا لهذه الآلة ما كسبها قوة غير محصورة وهم سميطن وفلطن وجامس وات وهذا الاخير هو الذى اخترع الكيفية العجيبة فى الانتفاع بالآلة البخارية التى اخترعها أولا نيوكمن كما ظهر بهذا القرن الخدمات العجيبة الهائلة على يد المهندس براد لى تتضاعفت طرق المواصلة بانكلترة وفتحت الخلج العديدة فى الاماكن التى كانت معطلة وبذلك نمت نتائج الايدى واتسعت دوائر متجر الانكليز وثروتهم وارتفع شأن السياسة فمن النتائج كثرة استخراج معادن الارض بسهولة المناولة والمواصلة وكذا جلب القطن والكتان وغيرهما واصطناع الاقمشة منهما فى اسرع وقت كل ذلك بمعونة الآلات المذكورة وقد كبرت بلدانها الصغيرة لاتساع نطاق المتجر فيها حتى صارت من البلدان المعتبرة وهاك مثالا جزئيا تعلم به التبديلات الخطيرة الواقعة فى احوال المتجر وهو ان قيمة ما كان يخرج من سائر بلدان انكلترة من القطن المصنوع لم تكن فى أوائل القرن الثامن عشر تتجاوز خمسمائة الف فرنك فى السنة وفى اواسط هذا القرن بلغت قيمة ما يخرج من ذلك فى السنة خمسمائة مليون فرنك ولنمسك عنان القلم هنا حيث بلغنا الى القرن التاسع عشر الذى فاز فيه المشاهير بالعلوم والصناعات اكثر من ان يحصوا والساعون فيما يزيد نوع البشر تحسينا اجل من ان يضبطوا ولم يزل الملوك يرغبون الناس فى اسباب التمدن وينشطونهم بالجوائز وعلامات العناية وبوضع صور مشاهيرهم بجامع العامة لتوفير دواعى البحث عما يمكن ان ينفع جنسهم ويخلد ذكرهم

(تلخيص المكتشفات والمخترعات)

فى أوائل القرن الرابع عشر استعمل اهل اوربا فى سفنهم البوصلة المنقولة عن العرب كما تقدم وكشف اهل البرتغال عدة جهات من شطوط افريقية الغربية وأحاطوا بالجهة الجنوبية من راس الزعزعة المسمى من ذلك الوقت برأس الرجاء الصالح ووجدوا بذلك طريق الهند فى البحر وأحدثوا فيها عدة مستعمرات وفى سنة ست وثلاثين واربعمائة وألف اخترع المطبع بالمانيا وفى سنة ست وستين واربعمائة والف وجدت فبريكة الحرير بمدينة ليون من فرانسا وفى سنة اثنتين وتسعين واربعمائة وألف كشف كريستوف كولومب أمريكا وفى القرن السابع عشر حدثت فبريكة القطن بانكلترة وفرنسا وظهرت المرآة التى تكبر الاشياء المتقدم ذكرها وظهرت البوصلة أى بيت المكاتيب وتحرر ميزان الهواء بالوجه المتقدم وفى سنة ثمان واربعين وستمائة والف ظهر استعمال الكينا بأوربا وفى سنة سبع وستين وستمائة والف استعملت فبريكة نسج البسط الرفيعة بباريس وفى سنة اربعين وسبعمائة والف انشئت فبريكة الذكير المذاب بانكلترة وفى سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة والف اخترع فرنكلان جواذب الصاعقة التى تجذب القوة الكهربائية من السحاب وتدخل بها فى الارض وفى سنة ستين وسبعمائة والف تأسس بباريس محل تعليم الصم البكم والعمى القراءة والكتابة والرياضات ثم اقتدى بذلك بقية ممالك أوربا حتى انه يوجد اليوم بها من الاماكن المخصوصة بتعليمهم نحو مائة وخمسين

وكيفية ذلك في الاصم الابكم ان يروه صور الحروف ويصطلحوا معه
على تخصيص كل حرف منها باشارة مخصوصة في الاصابع ثم يحضروا له
الشيء المراد تعريفه اياه ويكتبوا اسمه له على مقتضى تلك الحروف
الاشارية فبهذه الواسطة يصير قابلا للتعليم لتيسر الكلام معه بسهولة
وفي الاعمى بجعل حروف له ذات اجرام فبذلك يقبل تعلم القراءة والكتابة
واذا اريد تعليمه الجغرافيا ترسم له الخريطة اجراما محسوسة فيسهل
تعلمه اياها جدا حتى يصير بحيث متى طلب منه تعيين محل من الارض
أو بلد من البلدان وضع يده عليه بدون مشقة وفي سنة ست وسبعين
وسبعمائة وألف اخترع الطبيب جنر الانكليزي من مدينة بركلي
كيفية تلقيح الجدري وقد تنازع مؤرخو الانكليز والفرنسيس
وأميركا في اختراع الآلة البخارية فكل يدعي ذلك لاهل مملكته
والذي حرره اراغو الفلكي الفرنساوي هو ان المانكيجي هيرون
الاسكندراني فكر في قوة البخار والمنافع التي يمكن تحصيلها به
وكان ذلك قبل الميلاد المسيحي بمائة وعشرين سنة لكن بقي هذا الرأي
عقيما عدة قرون ثم في سنة ثلاث واربعين وخمسمائة وألف من الميلاد
المذكور كتب بلاسكو دي غراي الاسبانيولي الاصول التي يمكن
حصولها عن تلك القوة وفكر في استعمالها وكتب مثل ذلك سلمون
دوكوس الفرنساوي في سنة خمس عشرة وستمائة وألف ثم في سنة
ثلاث وستين وستمائة وألف استقل بهذا الشان ورشستر الانكليزي
الا ان ما انتجته فكرته لم يكن كافيا في حصول الانتفاع بتلك القوة
ثم في سنة تسعين وستمائة وألف فكر في شأنها المهندس دنيس باپين

الفرنساوى الى أن ركب فى سنة خمس وتسعين وستمائة والف الآلة البخارية بابستون وهو شئ يشبه مدق المكحلة وهو أول من ظهر له جعل للقوة القابلة للبسط فى آلة تارية حيث ان البخار ينبسط عند شدة الحرارة وينقبض عند البرودة ثم اعتنى بذلك الماكينجى الانكليزى جامس وات المتقدم الذكر الذى ظهرت أعماله فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر بتوجيه العناية الى هذه المآثرة وبحثه عن سائر أجزاء الآلة البخارية حتى ارتقى فى ذلك درجة تنيله منصب الاختراع لها وقد كان دنيس بابين المذكور وأشار الى امكان السفر بها فى البحر وبين كيفية ذلك بغاية الايضاح وفى سنة ست وثلاثين وسبعمائة والف أخذ جوناتان هلس الانكليزى السراح من الدولة فى استعمال الآلة المذكورة بسفينة لكن لم تتم له الموجبات فكانت جدوى فعله قليلة وفى سنة خمس وسبعين وسبعمائة والف صنع الماكينجى بريا الفرنساوى السفينة الاولى البخارية وبعد ثلاث سنين اخترع جوفروى الفرنساوى الآلة المذكورة والقاها على وادى دوب بفرنسا وفى سنة احدى وثمانين وسبعمائة والف ألقى على وادى صون بفرنسا ايضا سفينة كبيرة من ذلك النوع وسارت ثم استقل بالمآثرة المشار اليها جماعة فى انكلترة نجح سعيهم فيها وهم ميلر فى سنة احدى وتسعين وسبعمائة والف ثم لورد ستنهوب فى سنة خمس وتسعين وسبعمائة وألف ثم سيمنغطن سنة احدى وثمانمائة والف وفى السنة الثالثة من القرن التاسع عشر جرب الاميركانى فلطن بباريس عمله بتلك الآلة فرأى عدم النجاح وكان معه من أهل وطنه ليونسطن فوضعا على وادى سون أول فابور تام بالعجلات وذلك فى تاسع أغشت

من

من السنة ا ... من لم يتفق انجاز المباشرة المذكورة بفرنسا لعدم اعتناء اهل عصره بـ ذلك الوقت فلما آيس فلطن من نجاح سعيه هنالك حمل مخترعه الى وطنه اميركا واشهره بها ويقول اهل فرنسا ان من سوء البخت عدم انجذاب بال الدولة فى ذلك الوقت لهذه النتيجة الباهرة وفى السنة السادسة من القرن المذكور سافرت السفينة البخارية المسماة كارمونت من نيويورك الى فيلادلفيا فى الممالك المتحدة باميركا وفى سنة اربع عشرة وثمانمائة والف شرع المذكور فى اصطناع الفرقاطة البخارية الاولى فمات قبل اتمامها وفى حياته صنع بتلك المملكة عدة فابورات صغار منها المسمى فلطن الذى التقى بالسفينه الحاملة لنابوليون الاول الى جزيرة صانت الآن التى بقى فيها بعد سقوطه فلما رأى الفابور المذكور وذنب دخانه شائل فى الجو ندم على اعراضه من تلك المأثرة التى تم ظهورها فى غير بلاده وجميع التحريرات البخارية مستنبطة من قواعد فلطن المذكور لانه كان مهندسا حاذقا لبيبا ثم انتشر هذا المخترع بسائر جهات اوربا على التعاقب شيأ فشيأ واما استعمال آلة الذنب المسماة آليس بدلا من العجلات فاول من فكر فيها دوكى الفرنساوى سنة سبع وعشرين وسبعمائه والف وبوكدون سنه ثمان وستين وسبعمائه والف وفى سنه ثلاث وثمانمائه والف اخذ شارل دلرى الرخصه فى عمل الآلة المذكورة لانه سعيه اذ ذاك لم ينجح لعدم وجود المبالغ اللازمه من المال فاغتنم التفرغ لهذا العمل المهندس اريكصون الشهير من اهل السويد فى الممالك المتحدة باميركا من سنه ست وثلاثين وثمانمائه والف الى سنه اربع واربعين وثمانمائه

والف الى آن ثم واستعمل فى سنه خمس واربعين وثمانمائه والف وقد شاع العمل به الآن وفى سنه ثلاث وثمانين وسبعمائه والف ارتفع فى الهواء بالبالون مونغولفى الفرنساوى والبالون قبه من الحرير مصنوعه بكيفيه لاينفذ بها من مسامها الغاز الذى هو الطف من الهواء فتملأ القبه بتلك المادة فتصعد فى الجو لصيرورتها أخف من الهواء وفى سنه اربع وتسعين وسبعمائه والف اخترع ولتا الميل الذى يستعمل للتذويب وللتغراف الكهربائى وفى سنه احدى وثمانمائه والف اخترع جكار الحائك آلة النسج التى تنسج بدون واسطه اليد وهذه الآلة أورثت تبدلا كبيرا فى أمر النسج وارتفع بها شأن فبريكات ليون بفرانسه التى تصنع الاقمشه الحريريه وغيرها ولذلك رفع اهلها صورة المخترع المذكور ببطحاء المدينه اظهارا لممنونيتهم له وفى سنه ست عشرة وثمانمائه والف ظهر بلندرة حادث اسراج الغاز كما ظهر بها فى السنه المذكورة الستينوغرافى وهى كيفيه تسهيل استيعاب الكاتب جميع ماينطق به اللسان السريع باصطلاح مخصوص والواضع لها رامزى من اهل سكوتلاند وفى سنه تسع وعشرين وثمانمائه والف ظهرت أول كروسه تامه تجرى على طريق من الحديد وهى من مخترعات المهندس ستيونصن الانكليزى واخترع ويتصطون الانكليزى أيضا الكيفيه المستعمله فى التلغراف المذكور واخترع نيبس وداغير الفوتغرافى اى ارتسام الصورة بواسطه المرآة وبقاءها ولهذه الصناعه فوائد جمه فى الطبيعيات والفلك

ولما

ولما كان تقدم أهل اوربا فى ميدان التمدن الذى من نتائجه الاختراعات المشار اليها انما كان بتمهيد طرق العلوم والفنون وتسهيل اسباب استحصالها وكان للمملكة الفرنساوية مزيد شهرة بحسن التنظيم فى اطوار التعلم والتعليم رأينا ان نبين تراتيبها الناجحة ليقاس عليها بقية الممالك لاقتداء بعضهم ببعض فى مثل ذلك فنقول اعلم ان طبقات المتعلمين عندهم ثلاث لان التعلم اما مبتدى اومتوسط اومنته وانقسام الفنون على هذه الطبقات باعتبار سهولة الفن وصعوبته فالفنون الاولية مثل علم الاخلاق وأصول الديانة والقراءة والكتابة والمفردات اللغوية وأصول الحساب والوزن والكيل واصول التاريخ والجغرافيا ومبادى سر الطبيعة والاستدلال بالموجودات الارضية ومبادى الفلاحة والصناعات وقانون حفظ الصحة واصول المساحة ورسم الارض والتصوير الخطى والالحان وكيفية تقوية الاعصاب بالحركات الرياضية فهذه الفنون الاولية تدرس فى المكاتب العمومية المقامة من الدولة أوالايالة أوالبلدة أوالقرية وفى المكاتب المطلقة ومحال المرحمة المقامة من خصوص اشخاص من الناس وجمعيات من المحسنين واما فنون الطبقة المتوسطة التى ينتقل اليها بعد تحصيل ما يجب تحصيله من المعارف الاولية فهى علم اللغات القديمة والحادثة وعلم البيان والمنطق والفلسفة والعلوم الرياضية والطبيعية والتاريخ وجميع هذه العلوم تدرس فى مكاتب الدولة ومكاتب لاهل البلدان واماكن خصوصية ومحال صغيرة لتعليم الرهبان واما الطبقة المنتهية فمنهم من يتعلم بالمكاتب العالية ومنهم من يحضر مجامع مدرسي العلوم والانشاء الذين يجيزون الطلبة

بعد امتحانهم بحضرتهم والمجامع المشار اليها مشتغلة بدراسة العلم الالهى واحكام النوازل وصناعة الانشاء ونحو ذلك وتتنوع الى خمسة اصناف احدها يحتوى على ثمانية مجامع وظيفتها تعليم العلم الالهى ستة منها على مقتضى العقيدة الكاثوليكية واثنان على مقتضى العقيدة البروتستانية ومن شعب هذا العلم عندهم فروض الديانة وعلم الاخلاق ونظام الكنيسة والكتاب الموصوف عندهم بالمقدس واللسان العبرانى والصنف الثانى يحتوى على تسعة مجامع وظيفتها تدريس علم النوازل المنقسم عندهم الى القواعد العمومية واحكام الرومان والقانون المدنى واحكام الجنايات واعمال المجالس وقياس العقوبات باحكام البلدان والقانون المتجرى واحكام الادارة العمومية واحكام مايقع بين الامم والاحكام الفرنساوية والصنف الثالث يحتوى على ثلاثة مجامع وظيفتها دراسة علم الطب المتناول للتشريح وتركيب الحيوان وتاريخ الطبيعة المتعلق بالطب وقانون الصحة ومعرفة الامراض الظاهرية والباطنية وكيفية المعالجة ومواد الادوية وعلاج الجراحات واحوال الولادة وهناك مكاتب كثيرة لتعليم كيفية تركيب الادوية ومكاتب أخرى للاستعداد لتعاطى فن الطب والصنف الرابع يحتوى على مجامع وظيفتها دراسة علوم مختلفة كعلم الهيئة والفلك وعلم الجبر والمساحة وعلم المكانيك أى التصرف بالآلات كجر الاثقال وعلم استعمال الآثار الطبيعية كالتصوير بالمرآة وعلم الكيمياء وعلم طبيعة الارض والنبات وتركيبه وعلم طبائع الحيوانات والصنف الخامس يحتوى على مجامع وظيفتها تعليم الانشاء وسائر العلوم الادبية وعلم الفلسفة وتاريخها وآداب اليونان والشعر

اللاتينى

اللاتيني والفرنساوي وآداب الاجانب والنحو والتاريخ قديمه وحديثه والجغرافيا وهناك مكاتب للاستعداد للفنون المذكورة ويقرأ فيها تاريخ فرنسا كالجغرافيا الطبيعية والسياسية وعلم الرسم ومن عوائدهم ان يجتمعوا كتبهم في المكتب العالي المشتهر بمكتب فرنسا وهناك مكتب لتعليم الالسنة المشرقية ومحل مخصوص بتعليم أخذ الاطوال ومحل الرصد السلطاني بباريس والمحل المعد لوضع الحيوانات المصبرة على اختلاف انواعها وانواع الاحجار والمكتب السلطاني المعد للخريطات الجغرافيه ومكتب البوزار اي الصناعات المستظرفة ومكاتب اعمال اليد ومكتب التصوير السلطاني ومحل تعلم قواعد الموسيقى ومكتب تعليم مخاطبات التياطرات وجميع المكاتب المشار اليها تحت رعاية وزير المعارف وما عداها من المكاتب الخصوصية فانها وان كانت خارجة عن دائرة الادارة العمومية الا انها لا تخرج عن دائرة المراقبة حيث يجب تفقدها فيما يتعلق بتهذيب الاخلاق وحفظ الصحه وموافقه التعليم لمقتضى قوانين البلاد ثم ان هناك خمس جمعيات من كبار علمائهم يسمى كل منها بالاكدميه وتسمى الجمعيه الاولى أكدميه فرنسا والثانيه اكدميه الخطوط القديمه والثالثه اكدميه العلوم والرابعه اكدميه البوزار والخامسه اكدميه السياسه وتهذيب الاخلاق فوظيفه الجمعيه الاولى الاعتناء بتصفيه اللغه وتحرير أوضاعها ووظيفه الثانيه تحرير الاقلام القديمه واستخلاص الالسنه العلميه والنظر في الهيا كل القديمه والتواريخ ووظيفه الثالثه نشر رسائل في سائر أنواع العلوم وهذه الجمعيه بمثابه مجلس لتحرير سائر العلوم ووظيفه الرابعه النظر في أحوال الابنيه

والادهان والنقش والتصوير والموسيقى وهذه الجمعيه هى التى تعين
من يستحق الدخول فى مكتب البوزار ووظيفه الخامسة النظر فى احوال
علوم الفلسفه والاحكام والحقوق العامة والا كونومى بوليتيك اى
الاقتصاد السياسى والاستاتستيك وتاريخ الفلسفه العمومى والادارة
السياسيه والماليه ولكل من هذه الجمعيات تعيين جوائز المؤلفين من
مقدار مال أو نيشان من الصنف المعروف عندهم بالمداليا والجوائز
تارة تكون من الدولة وأخرى من بعض أعيان البلد ترغيبا فى الاختراع
وهنالك مكاتب أخرى لتعليم سائر العلوم والفنون الحربية البرية
والبحرية و جمعيات أخرى وظيفتها الاعانه فى أسباب التقدم فى المعارف
والفلاحه وسائر الصنائع منها جمعية الطب وادارة المؤزبات السلطانيه
و جمعيه الترغيب فى الصناعات الاهليه والجمعيه السلطانيه المركزيه
فى الخضر والنباتات المتكفلة بجلب غير الموجود منها من سائر الاقطار
وتدبيره بما يكون سببا فى بقائه عندهم حتى صار بهذه الواسطه يوجد
عندهم غالب ما يوجد فى سائر المعمور و جمعيه فى الجغرافيا وأخرى
فى بنية الكرة الارضيه وأخرى فى حوادث الجو والآثار القديمة
وأحوال الامم وأخرى فى خصوص احوال آسيا وأخرى فى الاقتصاد
السياسى وأخرى فى مبادى العلوم وأخرى فى الجراحات واخرى
فى تركيب الانسان واخرى فى تواريخ فرنسا كما ان بابالات فرنسا كثيرا
من هذه الجمعيات و يوجد كثير من المدارس لتعليم كيفيات التصوير
واعمال اليد وهنالك مكاتب تتعلق بالمعادن ومكتب كبير لاصول
التجارة واماكن خصوصية لذلك تحت رعاية الدولة وثلاثه مكاتب
سلطانيه لتعليم البيطرة ومثلها لتعليم فنون الفلاحة واثنان وخمسون

جريا

بريا لامتحان قواعد الفلاحة والعارفون بقواعد الفلاحة
متوزعون في بلدان المملكة ومن مكاتب الفلاحة ماهو دائم التعليم
ومنها ما لا يفتح الا في أوقات مخصوصة ومن تاقت نفسه الى تفاصيل العلوم
والفنون المشار اليها فعليه بمطالعة الفصل الثالث عشر من المقالة الثالثة
من رحلة العالم البارع الشيخ رفاعة أحد علماء مصر المسماة بتخليص
الابريز الى تلخيص باريز فقد كشف فيها الغطاء عن تدبير الامة
الفرنساوية حتى رفعت راية التمدن وأجاد في ذلك وأفاد

ومن آثار اعتنائهم بتوسيع دوائر العرفان الذي هو أساس التمدن
والتهذيب لنوع الانسان كثرة خزائن الكتب الجامعة لسائر الفنون
وتسهيل طرق الانتفاع بها بحسن الادارة والترتيب الحاسم لمواد العوائق
كما يتضح ذلك بالتفصيل الآتي ولنقتصر في بيان كثرة الكتب
بالبلدان الاوروباوية المعتبرة على ما حرره تعالى وزير المعارف
العمومية بايطاليا بعد تمام بحثه عن ذلك سنة سبع وستين وثمانمائة
وألف فذكر ان الموجود بخزائن ايطاليا من الكتب المجلدة أربعة
ملايين ومائة وأربعون ألفا ومائتان وواحد وثمانون مجلدا غالبها
من الكتب القديمة المتعلقة بالديانة وبخزائن بريطانيه العظمى مليون
وسبعمائة وواحد وسبعون الفا وأربعمائة وثلاثة وتسعون مجلدا
فيكون لكل مائة نفس من الاهالي ستة مجلدات وعلى قياس هذه النسبة
يكون لكل مائة نفس من اهالي ايطاليا احد عشر مجلدا وسبعة
أعشار المجلد ويوجد ببلاد النمسة مليونان واربعمائة وثمانية
وثمانون مجلدا وبالنسبة للاهالي يكون لكل مائة نفس ستة مجلدات

وتسعة اعشار المجلد ويوجد بالبروسية مليونان وأربعون ألفا
واربعمائة وخمسون مجلدا فيكون لكل مائة نفس من أهاليها
احدعشر مجلدا وفى ازوسية ثمانمائة ألف واثنان وخمسون ألف
مجلد فيكون لكل مائة من اهاليها مجلد واحد وثلاثة اعشار المجلد وفى
البلجيك خمسمائة ألف وتسعة آلاف ومائة مجلد فيكون لكل مائة
من الاهالى عشرة مجلدات واربعة اعشار المجلد وفى باواريا مليون
ومائتان وثمانية وستون ألفا وخمسمائة مجلد فيكون لكل مائة من
اهاليها ستة وعشرون مجلدا وخمسا المجلد كما يوجد بفرنسا أربعة
ملايين وثمانمائة وتسعون الف مجلد فيكون لكل مائة من اهاليها
احد عشر مجلدا وسبعة اعشار المجلد (فهى مثل ايطاليا قال)
وبهذه النسب يظهر ان مملكة باواريا أكثر كتبا من غيرها بالنسبة
الى عدد الاهالى وان كان الموجود بفرنسا لايوجد بغيرها من
الممالك وفى مدينة باريس وحدها ثلث العدد الموجود بمملكة
فرنسا كلها ففى قاموس العلوم المؤلف فى هذه السنين الاخيرة ان
الخزانة السلطانية بباريس بها من الكتب على ماتحرر فى سنة
ثلاث وستين وثمانمائة وألف مليون كتاب مطبوع وثمانون ألفا
بخط اليد وغاية ماكان بها وقت تأسيسها فى سنة ثمانين وثلثمائة
والف تسعمائة وعشرة مجلدات وصار بها فى سنة سبع واربعين
وخمسمائة وألف ألف وثمانمائة وتسعون مجلدا ثم فى سنة اربعين
وستمائة وألف صار مقدار مابها ستة عشر ألفا وسبعمائة وستة
واربعين مجلدا وفى سنة اربع وثمانين وستمائة وألف صار قدر

مابها

مابها خمسين ألفا وخمسمائة واثنين واربعين مجلدا وفى سنة خمس وسبعين وسبعمائة وألف صار بها مائة وخمسون ألف مجلد وفى سنة تسعين وسبعمائة وألف صار بها مائتا ألف مجلد واليوم بها مليون من الكتب المطبوعة وثمانون ألفا بخط اليد كما تقدم كما بها أربعون ألف خريطة فى فن الجغرافيا وعدد كثير من الرسائل ونحوها مما لا يطلق عليه اسم المجلد وبهذا التفاوت الكبير الواقع فى مواد المعارف يعلم مقدار تأثير الحرية فى الممالك فانا نرى الخزانة المذكورة فى مقدار بعمائة وعشرة أعوام من مبتدا تأسيسها الذى هو سنة ثمانين وثلثمائة وألف الى سنة تسعين وسبعمائة والف لم يتحصل بها الا مائتا ألف مجلد ومن ذلك التاريخ الذى هو مبدأ الحرية بفرنسا الى ثلاث وستين وثمانمائة وألف التى هى تمام اربع وسبعين سنة من ذلك الوقت ازداد فى الخزانة المذكورة ثمانمائة وثمانون الف مجلد دون مالم يمكن حصره من الرسائل المشار اليها وعلى هذا يقاس سائر اسباب التمدن ويوجد بباريس ثلاثون خزانة سوى الخزانة المذكورة متفاوتة فى الكبر كما توجد خزائن معتبرة فى سائر تخوت الممالك وأما بيان حسن ادارتها المسهل لغاية سهولة الانتفاع بها فهو ان أماكن الخزائن المشار اليها تفتح كل يوم قدر خمس أوست ساعات ومنها مايفتح بالليل ايضا قدر ثلاث ساعات وذلك فيما عدا يوم الاحد وأيام الاعياد التى لا تتجاوز مدتها شهرا فى السنة وايام التسريح للاستراحة وانما تفتح فى سائر الايام للطلبة الراغبين فى الاستفادة وأما الذين يأتون بقصد مجرد الاطلاع فلا يسوغ لهم ذلك الا فى يومين من الاسبوع

والخزائن المشار اليها نظار وخدمة بقدر الكفاية وحولها بيوت للتعلم تسخن في الشتاء وهي محتوية على آلات الكتابة عدا الكاغد فيأتي به مريد الاستنساخ ويطلب من المكلف الكتاب الذي يريده ببطاقة يدفعها اليه واذا احتاج الى اكثر من كتاب يبين السبب فيها فيدفعها لمكلف الخدمة فيحضر له في الحين ما طلب وحين خروجه من ذلك المحل يسلم للمكلف ما اخذه من الكتب وهذه المنحة مبذولة لكل راغب سواء كان من الاهالي او الاجانب أمّا من كان من المؤلفين المشهورين فيسوغ له نقل الكتب للانتفاع بها في مهلة اقصاها عام اذا طلب ذلك بالكتابة وبين السبب الداعي لاخذ الكتاب وعند مضي المدة اما أن يرجع ما اخذ أو يطلب تجديد التسويغ مدة أخرى ومما يناسب سوقه هنا اعتناؤهم بأسباب تهذيب أبناء العائلة الملكية وتوسيع دائرة معارفهم ولا شك ان ذلك من الاصول المعتبرة النافعة في ادارة المملكة غاية النفع

فنقول من عادتهم ان من يبلغ من أبناء العائلة سن التربية ينتخب له رئيس تلك العائلة معلمين مهرة يعلمونه من فنون العلم ما يناسب حاله والمراد منه من كل ما يهذب اخلاقه ويوسع في المعارف نطاقه فاذا بلغ من السن اشده يوجه الى الممالك الاجنبية لمشاهدة احوالها وطرق سياستها وأحكامها وما لها من التمدن في العمران وغيره ليتحقق بالمشاهدة ما بينها وبين بلاده من التفاوت ليعتبر اسباب ذلك وقت مباشرته لسياسة المملكة فيجتنب ما تأخرت به بلاده ان رأى غيرها خيرا منها ويعتني بما تقدمت به ان رآه دونها فاذا بلغ من العمر نحو ثمان عشرة سنة يصير من أعضاء المجلس الاعلى يحضره ولا يكون له كلام فيه الا اذا بلغ من العمر خمسا

وعشرين

وعشرين سنة وفائدة ذلك التدرب على الامور السياسية ومثافنتها حتى يستكمل المملكة فيها معما يحصل له بذلك من الخبرة بطبقات رجال السياسة المتأكد معرفتها على من يتوشح للرئاسة التي هي اعظم الخطط البشرية واصعبها فيجب على متقلدها من الاستعداد والمعرفة بمقتضيات الاحوال المختلفة ما لا يجب على غيره لاسيما معرفة اهل الخبرة والمروءة والنجدة من رجال المملكة لينتخبهم للخطط المعتبرة مع التفطن لدسائس الحساد والمفسدين فان المطلوب من الملوك ليس هو مجرد فصل النوازل الشخصيه كما هو مشاهد في بعض الممالك الاسلامية ولا مباشرة جزئيات الادارة التي يمكن اجراؤها بغيرهم من الموظفين وانما المطلوب منهم النظر في كليات الامور من معرفة الرجال اللائقين بالخطط وامتحانهم وتعقبهم بالمراقبة لارشاد جاهلهم وزجر متجاهلهم وتفقد احوال الرعايا والاعانة على تكثير الصنائع والعلوم الموصلة الى تهذيب الاخلاق ونمو الارزاق والعناية بتنظيم العساكر البرية والبحرية وتحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعه لحفظ الدين والوطن واصلاح احوال الخلطة السياسيه والتجريه مع الدول الاجنبية بما ينمو به عز المملكة وثروتها الى غير ذلك من الكليات فان سعادة الممالك وشقاوتها في امورها الدنيوية انما تكون بقدر ماتيسر لملوكها من ذلك وبقدر مالها من التنظيمات السياسيه المؤسسة على العدل ومعرفتها واحترامها من رجالها المباشرين لها نقل عن المؤرخ بوليبوس اليوناني الذي تكلم على سياسة الامة الرومانيه وما وقع بينها وبين اهل قرطاجنة من الحروب انه قال في معرض الاستدلال على ان المباشر للامر يلزمه

أن يكون عارفا باصوله ماءعناه اذا كان المريض لا يرتجى له حصول العافية على يد طبيب يجهل نوع المرض والدواء المناسب له فكذلك المملكة لا يرجى خيرها واستقامتها اذا كان وزراؤها المباشرون يجهلون أصول سياستها وقوانين شرائعها وعاداتها ولا يخفى ان حصول خير المملكة اذا كان يمتنع بسبب الجهل بأصول السياسة فامتناعه اذا انضم لذلك عدم وجود تلك الاصول بالكلية أحرى وأولى لان السبب في الحالة الاولى دائر بين الجهل والتجاهل وكلاهما أمر عارض تمكن ازالته بتبديل المباشرين أو ارشاد جاهلهم والزام متجاهلهم بالجريان على الاصول المحفوظة أما اذا لم يوجد من تلك الاصول شئ يرجع اليه وسند مضبوط يقع التعويل عند الاشتباه عليه فان هاته الحالة يتسع فيها مجال الاغراض والشهوات من الآمر والمأمور وربما يؤول أمر الدولة الى الاضمحلال والدثور ولله عاقبة الامور هذا ولما تضمن ما أوردناه في هذا المجال الاشارة الى أن الحرية هي منشأ سعة نطاق العرفان والتمدن بالممالك الاوروباوية رأينا من المتأكد بيان معنى الحرية عرفا لدفع ما عسى ان يقع من الالتباس فيها

فنقول ان لفظ الحرية يطلق في عرفهم بازاء معنيين احدهما يسمى الحرية الشخصية وهو اطلاق تصرف الانسان في ذاته وكسبه مع أمنه على نفسه وعرضه وماله ومساواته لابناء جنسه لدى الحكم بحيث ان الانسان لا يخشى هضيمة في ذاته ولا في سائر حقوقه ولا يحكم عليه بشئ لا تقتضيه قوانين البلاد المتقررة لدى المجالس وبالجملة فالقوانين تقيد الرعاة كما تقيد الرعية والحرية بهذا المعنى موجودة في جميع الدول الاوروباوية الا في الدولة

البابويه

البابويه والدولة المسكوبية لانهما مستبدتان وهما وان كانتا ذواتي احكام مقررة الا انها غير كافية لحفظ حقوق الامة لان نفوذها موقوف على ارادة الملك المعنى الثاني الحرية السياسية وهي تطلب الرعايا التداخل في السياسات الملكية والمباحثة فيما هو الاصلح للمملكة على نحو ما اشير اليه بقول الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب رضي الله عنه من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه يعني انحرافا في سياسته للامة وسيرته معها ولما كان اعطاء الحرية بهذا المعنى لسائر الاهالي مظنة لتشتيت الآراء وحصول الهرج عدل عنه الى كون الاهالي ينتخبون طائفة من أهل المعرفة والمروءة تسمى عند الاوروباوين بمجلس نواب العامة وعندنا باهل الحل والعقد وان لم يكونوا منتخبين من الاهالي وذلك ان تغيير المنكر في شريعتنا من فروض الكفاية وفرض الكفاية اذا قام به البعض سقط الطلب به عن الباقين واذا تعينت للقيام به جماعة صار فرض عين عليهم بالخصوص ومجلس النواب المشار اليهم موجود في سائر الممالك الاوروباوية ماعدا المملكتين المتقدم ذكرهما وله ان يتكلم بمحضر الوزراء وغيرهم من رجال الدولة بما يظهر له في سيرة الدولة من استحسان وضده وغير ذلك من المصالح العمومية كما يأتي وبقي وراء ذلك للعامة شيء آخر يسمى حرية المطبعه وهو أن لا يمنع احد منهم ان يكتب ما يظهر له من المصالح في الكتب والجرنالات التي تطلع عليها العامه أو يعرض ذلك على الدولة والمجالس ولو تضمن الاعتراض على سيرتها وفي هذا المقدار افترقت الممالك الاوروباوية فمنهم من ناله مع الاول فتمت له الحرية المطلقة ومنهم من ناله بشروط معتبرة عند الملوك التي لم ترخص لرعاياها ما تيسر لغيرها اعطاؤه من الحقوق وذلك ان احوال

الممالك متفاوتة بتفاوت مقاصد رعاياها فمنهم من لا ينازع الملوك الا لقصد
الحصول على ما يسوغ لهم معارضة الدولة ان حادت عن سواء السبيل
واستجلاب ما فيه صلاح المملكة وحينئذ تيسر للملوك اعطاء تمام الحرية
لتوارد مقصد الراعى والرعية على المصلحة ومنهم من يظن به ان الباعث
له على المناضلة فرط التعصب والحمية حيث تفترق الرعايا احزابا كل حزب
يروم السياسة التى يراها أصلح للمملكة فى نظره كان يرى البعض أن
تكون الدولة جمهورية والبعض يختار أن يكون الملك فى عائلة غير التى
يختارها الآخر فينشأ عن ذلك ظن الدولة ان معارضة الاحزاب لها وان
كانت بحسب الظاهر لاتجاهها الى طرق المصلحة لكن الغرض منها
وراء ذلك وبذلك الظن الناشئ عما ذكر استباح الملوك الامتناع من
اعطاء تمام الحرية الموصل لما اشير اليه * هذا وان من واجبات
الممالك التى تنال الحرية ولو خصوص الشخصية ان يقابلوا تلك النعمة
باظهار آثارها واستجناء ثمارها بتعاطى المعارف وأنواع الصناعات
الراجعة الى الاصول الاربعة الفلاحة والتجارة والاعمال البدنية
والفكرية وبهذه الاصول قوام السعادة الدنيوية المربية للهمة
الانسانية وكمال الحرية المؤسسة على العدل وحسن نظام الجماعة حتى
يكون المحترف مثلا آمنا من اغتصاب شئ من نتائج حرفته أو تعطيله فى بعض
احوال خدمته فما ينفع الناس كون ارضهم خصبة كريمة المنابت
اذا كان الباذر فيها لا يتحقق حصاد ما زرع ومن الذى يقدم حينئذ على
ازدراعها ولضعف أمل الناس فى كثير من اراضى آسيا وافريقية تجد
انخصب مزارعها بورا معطلة ولا شك ان العدوان على الاموال يقطع
الآمال وبقدر انقطاع الآمال تنقطع الاعمال الى أن يعم الاختلال
المفضى الى الاضمحلال

ومن

ومن أهم ما اجتناه الاوربا ويون من دوحة الحرية تسهيل المواصلة بالطرق الحديدية وتعاضد الجمعيات المتجرية والاقبال على تعلم الحرف والصنائع فبالطرق تستجلب نتائج البلدان القاصية قبل فوات ابان الانتفاع بها بعد ان كان جلبها متعذرا لطرو الفساد عليها فى الطريق أو لزيادة كرائها على اضعاف قيمتها وبالجمعيات تتسع دوائر رؤس الاموال فتأتى الارباح على قدرها وتتداول على المال الايدى المحسنة لتنميته وبتعلم الحرف تكتسب الاموال الذريعة عن غير رأس مال وقد رأينا بالمشاهدة ان البلدان التى ارتقت الى أعلى درجات العمران هى التى تأسست بها عروق الحرية والكونستيتوسيون المرادف للتنظيمات السياسية فاجتنى اهلها ثمارها بصرف الهمم الى مصالح دنياهم المشار الى بعضها ومن ثمرات الحرية تمام القدرة على الادراة المتجرية فان الناس اذا فقدوا الامان على اموالهم يضطرون الى اخفائها فيتعذر عليهم تحريكها وبالجملة فالحرية اذا فقدت من المملكة تنعدم منها الراحة والغنى ويستولى على اهلها الفقر والغلاء ويضعف ادراكهم وهمتهم كما يشهد بذلك العقل والتجربة

وما أشرنا اليه من أن الشركات الجمعية من اسباب نمو النتائج المتجرية معقول مجرب فان قوة الاجتماع معهودة فى سائر الامور العادية وغيرها وكلما تمكن حب الاشتراك من قلوب اهل المملكة يشاهد نمو المكاسب فيها بالعيان ولذلك كثرت الجمعيات بأوربا فى سائر المعاملات المدنية والمتجرية وغيرها وتكاثرت الخدمات برا وبحرا

وكثرت مجامع العلوم و جمعيات المحسنين للضعفاء والمساكين وتكرر التعاون على استخراج المعادن واصطناع الخلج ومجاري المياه التى تصعد بها السفن الى الجبال ثم تنزل وطرق الحديد الى غير ذلك من المهمات التى لم تكن تحدث لولا وجود تلك الجمعيات فمن الذى كان يقدر وحده على اصطناع طريق حديد أو يخاطر بجميع ماله على فرض قدرته فى احداث مالم يتيسر لهم الا باشتراك مائتى أو ثلثمائة الف نفس بخلاف مخاطرة الواحد منهم بنزر يسير من ماله فانها غير مجحفة ولا مستبعدة ثم ان الجمعية اذا كانت كبيرة وكان فيها فائدة عمومية فان الدولة قد تضمن لها ربحا معلوما فى المائة وادارة الجمعية تكون بيد أناس ينتخبون من ارباب الحصص لهم مزيد شهرة ومعرفة باجراء قانون الشركة وحفظ فوائدها وعند تمام السنة يقدمون حساب ذلك مع سائر متعلقات الادارة ويعينون الفوائد لارباب الحصص المشار اليهم ومن أعظم ما أثمر المشاركة شق خليج السويس وطريق الحديد الجامع بين طرفى البحر المحيط بامريكا وثقب جبل آلب الكائن بين ايطاليا وفرنسا وقطع جبل البرينى بين فرنسا واسبانيا لمرور طريق الحديد بهما واحداث السرداب تحت وادى تامس بلندرة وعقد الجمعية المسماة بمجرى امبريال التى لها من السفن الجليلة ما هو مشاهد فى سائر البحور ووضع سلك التلغراف تحت البحر المحيط من انكلترة الى امريكا ونحو ذلك من الاعانات التى وجدها فى المشاركة رجال الدول وارباب الاختراع وحذاق المحترفين ومعلوم ان قوة المجموع أشد بكثير من قوى الجميع والناس اذا تعاضدوا على شئ توصلوا الى المقصود منه

ولو

ولو كان من اصعب الامور وكفى حجة لذلك الحادثان الهائلان وهما بنك فرنسا المشهور ومستعمرات الانكليز بالهند فان دولة انكلترة تملكت بجمعية من تجارها تسمى كومبانية الهند مسافة ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف ميتر مربعا بها من السكان مائة وخمسة وثمانون مليون نفس وأمّا بنك فرنسا فانه كان فى سنة ثمانمائة والف راس ماله ثلاثون مليون فرنك مجمعة من ثلاثين الف سهم وفى سنة ثمان واربعين وثمانمائة والف بلغ ما به من النقود احدا وتسعين مليون فرنك وبلغت كواغده المالية الرائجه بين الناس وفى المعاملة رواج المسكوك مقدار اثنين وخمسين واربعمائة مليون فرنك وفى اواخر سنة تسع واربعين وثمانمائه والف رخص من الدولة للبنك المذكور أن يزيد فى كواغده الرائجة الى أن تبلغ مقدار خمسة وعشرين وخمسمائة مليون فرنك وفى سنة سبع وخمسين وثمانمائة والف طلب البنك من الدولة تجديد المدّة الى تمام اربعين سنة مستقبلة فأذنت له بشرط تضعيف ما به من النقود حتى يصير تقريبا مائتى مليون فرنك فضاعف ذلك وتممت له الدولة مطلوبه ثم ان من تصرفات البنك عندهم صرف كواغد الحوالات التى تكون مصححة بخط ثلاثة اشخاص يعرف مجموعهم بالملاء الذى يناسب المعاملة بذلك المبلغ الذى تضمنته وقبض ما كاف البنك بقبضه من الحوالات لاربابها بأجر معلوم الا اذا كانت فى البلد الذى هو به فانه يفعل ذلك بلاعوض وقبول ودائع الناس لمجرد حفظها ومراسلة من يضع فيه مالا وتتميم المحاسبة معه واقراض المال لمن يريده اذا دفع رهنا ثقة غير الربع والعقار من كل ما يصير عينا بسهولة كسهام طرق الحديد والكواغد التى تباع من اقتراض الدول والسبائك

ونحوها واعطاء كواغد الحوالات على نوابه كما يحيل عليه النواب ايضا وله خمسة وخمسون نائبا في بلدان متفرقة واذا أردت أن تعرف كيفية تدرجه الى هذه الحالة الراهنة وكيف اتسعت دائرة المعاملات بأوربا في هذه المدة الاخيرة منذ ثلاثين سنة فاعلم ان البنك المذكور لم يكن به من الكواغد في سنة ثلاثين وثمانمائة والف الا مقدار ثلثمائة وخمسين مليون فرنك واليوم به من النقود ما تقدم آنفا وهو ما يقرب من مائتي مليون فرنك ومن الكواغد الرائجة مع ما في الصندوق من الحوالات وغيرها مقدار ألف وستمائة مليون فرنك هذا مع ان البنك كان في الزمن السابق مستقلا بمعاملة الناس وأما الآن فقد زاحمه كثير من الجمعيات كجمعية معاملة الصناع والتجار والكريدي المعينة لمعاملة ارباب الاراضي والكريدي المعينة لمعاملة أرباب المنقولات والجمعية العامة وصندوق الودائع ونحوها من الجمعيات وبالجملة فاذا قال القائل ان الملايين التي كانت الناس تتعامل بها سابقا صارت اليوم ألوف ملايين فلا يكون قوله بعيدا عن الصدق

ومن أسباب تقدمهم العناية بمن اخترع شيأ لم يسبق اليه أو أجاد في عمل مفيد فمن ذلك ان بعوث الممالك المشار اليها مواضع معتبرة تعرض فيها نتائج المملكة من نباتات وحيوانات ومصنوعات مستغربة ونحوها بعد كل خمسة أعوام أو اقل او اكثر بحسب مقتضى حال المملكة وينعقد لذلك مجمع مركب من العارفين بحقائق الاشياء ليتأملوا فيها فان وجدوا شيأ منها مستبدعا أعطى مخترعه قطعة من نحاس أو فضة أو ذهب تسمى المداليا على شكل المسكوك مرسوما في احد وجهيها صورة الملك وفي الآخر مكان العرض وتاريخه وقد يستحق متقن صناعته نيشان

الافتخار

الافتخار فان قيل مافائدة هاته القطع التى أعلاها قطعة ذهب وهى لاتفى ببذل الجهد والمكابدة فى الاختراع فالجواب ان آخذ تلك القطع زيادة على الشهادة له بالكمال والتقدم فيما هو بصدده من الاعمال يتوصل بذلك الى ما يؤمله من الرغبة فى سلعته المثمرة لنمو مكاسبه لان سائر ما يقع فى ذلك المجمع يطبع فى صحف الاخبار ليشيع فى الناس وربما أعطى المخترع مبلغا من المال وقد كان نابوليون الاول اصدر أمرا باعطاء مليون افرنك لمن يحدث آلة تغزل الكتان وحدها ومن عناية ملوكهم بهذا المجمع ان الملك يحضره بنفسه مع رجال دولته حضورا رسميا عند فتح المعرض وعند انتهائه ويعلن للحاضرين بخطبة تتضمن مدح من أتى بشئ مستبدع لتتوفر الدواعى ويتنافس الناس فيما ينمى منافع الوطن واذا طلب احد المخترعين من الدولة ولو خارج المعرض قبل اشهاره مخترعه الرخصة فى الاستبداد باصطناعه مدة لا يصطنعه غيره فيها الا باذنه تعطى له الرخصة فى ذلك بشرط أن لاتتجاوز المدة خمس عشرة سنة وان يدفع للدولة شيأ معلوما فى مقابلة الاختصاص وأما المؤلفات فانها تبقى ملكا لصاحبها مدة حياته ويختص بها ورثته بعد موته سبع سنين وفى بعض الممالك ثلاثين سنه ثم يرتفع التحجير المشار اليه ولولا هذا التخصيص ما انبعثت رغبات الناس الى الاختراع والتأليف لان المخترع يلزمه ما لا يلزم المقتدى من اقتحام شاق الاعمال والمخاطرة بمصاريف التجريب واضاعة غالب الاوقات فى التدبير فاذا لم يعط هذا الاختصاص كانت أعماله المذكورة بلاعوض حيث شاركه غيره فى فائدتها ومن وجوه الترغيب عندهم ان من اخترع أمرا مهما تجعل

صورته من رخام أو نحاس وتوضع فى الاماكن المعدّة لاجتماع الناس أو يسمى باسمه ما يتفق حدوثه فى تلك المدّة من قنطرة أو طريق جديد أو نحو ذلك ليبقى بذلك ذكره وحاصل سياستهم فى هذا الشان اعتبار ما حقه ان لا ينسى بأى نوع يقتضيه حاله من وجوه الاعتبار كما اعتبرت ذلك الدولة العلية عند تأسيسها سوقا بدار الخلافة لعرض نتائج المملكة وقد وقع العرض المذكور فى سنة ثمانين ومائتين والف هجرية وفى سنة احدى وخمسين وثمانمائة والف وقع بانكلترة للعرض المشار اليه ترتيب عجيب وهو انهم أسسوا محلا فى غاية الاتساع والضخامة وأعدوه لعرض نتائج الممالك من سائر المعمور ثم وقع مثله فى فرنسا سنة خمس وخمسين وثمانمائة والف ثم تكرر بانكلترة ثم أعيد فى فرنسا بمزيد اعتناء سنه سبع وستين وثمانمائة والف كل ذلك ليقتدى المتأخر بالمتقدم فى الصناعات ونحوها مع ما يحصل لتجار تلك المملكة من الاموال الغزيرة الناشئة عن معاملة ملايين من النفوس الاجانب الوافدين عليها لذلك وادارة هذه المجامع وتعيين المنازل لارباب الصنائع والبضائع وتعيين من يستحق الجزاء ونحو ذلك موكولة لنظر مجلس مرؤس بأمير من البيت الملكى اظهارا لمزيد الاعتبار

وقد آن ان تبين اصول تنظيماتهم السياسية التى هى اساس التمدن والثروة المشار الى بعض آثارهما آنفا فنقول اعلم ان الامم الاورباوية لما ثبت عندهم بالتجارب ان اطلاق ايدى الملوك ورجال دولهم بالتصرف فى سياسة المملكة دون قيد مجلبة للظلم الناشئ عنه خراب الممالك حسبما تحققوا ذلك بالاطلاع على اسباب التقدم والتأخر فى الامم

الماضية

الماضية جزءوا بلزوم مشاركة أهل الحل والعقد الآتى بيانهم فى كليات السياسة مع جعل المسؤلية فى ادارة المملكة على الوزراء المباشرين وبلزوم تأسيس القوانين المتنوعة عندهم الى نوعين أحدهما قوانين الحقوق المرعية بين الدولة والرعية والثانى قوانين حقوق الاهالى فيما بينهم فرجع الاول الى معرفة ما لصاحب الدولة وما عليه ويندرج تحته امور منها حرية العامة الكافلة بضمانة حقوقهم ومنها تعيين اصول تصرفات الدولة جمهورية كانت أو وراثية كتنفيذ القوانين الحكمية وادارة السياسة الداخلية والخارجية كعمل الحرب وعقد شروط الصلح والتجارة وتعيين الوظائف ونصب المتوظفين من الوزراء وغيرهم وتأخير من لم تكن وظيفته مؤبدة (وانما عبرنا بالتأخير لان عزل المتوظف عن الخطة التى افنى اطيب عمره فى خدمة المملكة لنيلها عزلا يقتضى طرحه من خدمتها بالمرة لا يكون الا بذنب يثبت لدى مجالس الحكم بمقتضى القوانين) وكذا صرف الجبايى لما عينت له الى غير ذلك من ادارة المملكة بما لا يخرج عن مقاصد قوانينها كل ذلك من حقوق صاحب الدولة باعانة وزرائه وتأسيس اصول هذا النوع يكون فى دولة فرنسا بموافقة غالب رشداء أهل المملكة المتصرفين فى حقوقهم الخصوصية والسياسية وفى غيرها يزاد على الشرط المذكور اما العلم أو ملك عليه مبلغ محدود من الاداء أو الوجاهة المسماة عندهم بالنوبليس وموافقتهم اما بأنفسهم أو بواسطة وكلاء ينتخبونهم لذلك والنوع الثانى القوانين المحررة لفصل نوازل السكان والتسوية بينهم فى الجبايى والمنح بحسب المكاسب والاستحقاق الى غير ذلك من أحوالهم الداخلية وتأسيس هذا النوع

أو تبديله بما هو أليق بالحال يكون بموافقة المجلسين أعنى المجلس الاعلى المركب من أمراء العائلة الملكية وممن ينتخبه الملك من اعيان المملكة مؤبدا وظيفته ومجلس الوكلاء المركب ممن ينتخبهم الاهالى للمناضلة عن حقوقهم والاحتساب على الدولة فأهل هذين المجلسين هم أهل الحل والعقد عندهم فكل ما وافقوا عليه مما لا يخالف تلك الاصول اللازم فيها مشاركة العامة يصير من شرائع المملكة

واما مسؤلية الوزراء فمعناها ان يكونوا تحت احتساب مجلس الوكلاء مباشرة كما هو موجود فى سائر الممالك الكونستيتوسيونية ماعدا الدولة الفرنساوية اليوم فان وزراءها مسؤلون للملك وهو مسؤل للمجلس ومن آثار المسؤلية المذكورة ان أمور الادارة المتقدم انها من حقوق صاحب الدولة يتوقف انجازها على اجازة الوزراء بحيث لا يبرم أمرا منها حتى يستشيرهم وانهم لا يمكنهم البقاء فى الخدمة الا اذا كان غالب أعضاء مجلس الوكلاء موافقا فى سياستهم فعلم ان المجلسين المذكورين لا يتداخلان فى تفاصيل الادارة وانما دأبهما وضع القوانين وحفظها بالاحتساب على الدولة ومن اعمالها عند الاجتماع النظر واعطاء الرأى فيما يعرض على كل منهما من النوازل المهمة الداخلية والخارجية وسؤال الوزراء عما يظهر لهما متى شاء والقادح فى سيرتهم خصوصا مجلس الوكلاء وعلى الوزراء الجواب عن جميع ذلك وتقع المجادلة بالمجلس علنا بين القادح والمدافع ليتضح الحال ويظهر المصيب من المخطى فاذا اتفق غالب مجلس الوكلاء على تصويب سياسة الوزراء بعد التأمل فى أدلة القادح والمدافع تيسر للوزراء البقاء فى الخدمة وتحصل حينئذ

فائدة

فائدة الدولة والمملكة أمّا الدولة فلكون المجلس لايتوقف بعد ذلك في أن يسوغ لها أخذ ماتقتضيه المصلحة من المال والرجال لان من وافق على المصلحة وعلى حسن سيرة مباشريه لايمتنع من اعطاء مايلزم لانجازها وأمّا فائدة المملكة فبثبوت استقامة سيرة المباشرين لمصالحها فيهون عليها صرف أموالها ودماء أبنائها حيث كان فيما يعود بالنفع عليها وبمثل هذا يستقيم حال الدولة والمملكة ولو كان الملك أسير الشهوات أو ضعيف الرأى كما تقدم وأمّا اذا اتفق غالب المجلس على عدم استحسان سياسة الوزراء فيجب على الملك عند ذلك احد أمرين اما تبديل الوزراء المشار اليهم او حل مجلس الوكلاء على أن يعيد الاهالى الانتخاب فى مدة معلومة فاذا انتخبوا من يكون اشهر باللين والمساعدة للدولة دل ذلك على رضاهم بسياستها فيبقى الوزراء على خططهم وأمّا اذا انتخبوا الاوّلين اومن يكون مثلهم فى الشدة فيستدل بذلك على عدم رضاهم بها ويجب حينئذ خروج الوزراء من الخدمة ونعويضهم بمن سياسته ترضى المجلس وللمجلس المذكور أن يدعى الخيانة على احد الوزراء او مجموعهم اذا رأى أدلة ذلك وتكون نازلته تفصل بالمجلس الاعلى وظاهر ان الوزراء المشار اليهم كما تشدد عليهم القوانين المسؤلية عن تصرفاتهم تمنع التعدى عليهم فى النفس والعرض والمال فيتيسر للنجيب الامين منهم اجراء الامور على مواقع المصلحة والفوز بما يستعقبه ذلك من جميل الثناء ولمن اتصف بالامانة دون النجابة الخروج بالسلامة لاله ولا عليه وبما تقدم يعلم ان سلطة المجلسين تتحد تارة وتفترق أخرى اذ لكل منهما اعمال

تخصه واعمال يشارك فيها الآخر غير أن المعتبر فى تأسيس القوانين
سيما المتعلقة بالجبايى والقوة العسكرية وفى الاحتساب على الدولة
واستحسان سياسة الوزراء وضده اللذين ينبنى عليهما خروجهم
او بقاؤهم فى الخطة هو مايتفق عليه غالب مجلس الوكلاء حسبما
أشير اليه قريبا كما ان اجراء القوانين المذكورة يتوقف على موافقة
المجلس الاعلى على كونها غير مخالفة لاصول الكونستيتوسيون
قلت فبتقرير ماذكر يعلم ايضا ان صاحب الدولة عندهم مضطر الى
موافقة ارادة المجلس التى هى فى الحقيقة ارادة اهل المملكة ولايخفى
مايتبادر فيه من التشديدات التى تأباها نفوس غير المنصفين من
الامراء والوزراء لكن من بخت الامم الاورباوية ونجاح مساعيها
الدنيوية أن عرف ملوكها و وزراؤها ماينشأ عن ذلك من الفوائد
الجمة التى منها كف ايدى المأمورين عن التعدى على الرعية ومنها
سهولة اعتبار المكاسب فى توزيع الاداء على الاهالى بحيث لاينقص
من رؤس أموالهم اذ لايتم مع ذلك نمو العمران ومنها ان الرعايا اذا
وافق وكلاؤها على اصل المصلحة فانها الانشرح باعطاء مايلزم لانجازها
كما تقدم ومنها ان المفسد لايجد مساغا للقدح فى تصرفات الدولة بقصد
التنفير منها وتغيير القلوب عليها ومنها ان الوالى المستبد ولو كان عادلا
لايمكنه الاطلاع على احوال مملكته الابواسطة الوزراء وغيرهم من
المتوظفين الذين أثبتت التجارب ان اكثرهم لايعرفون الولاة
الابما تقتضيه فوائدهم فيتوصلون بالنصائح العمومية الى اغراضهم
الشخصية خصوصا من يشير منهم على الملوك بالاستبداد لماله فى ذلك
من المعونة على حصول استبداده هو ايضا فى مأموريته على انه يمكن لنا

أن نقول ان المأمورين في دولة الاستبداد كل واحد منهم مستبد على قدر حال مأموريته فلهذه الفوائد ونحوها تجشم الملوك والوزراء ما في التقييد في مبدأ الامر من المرارة نظرا لما يستعقبه من لذة السطوة والحضارة وقد صح حدسهم في ذلك بما لم نزل نشاهده من تقدمهم في العلوم والصناعات واستخراج كنوز الارض بالزراعة والبحث عن المعادن وحصولهم من امثال هذه المذكورات الناتجة من اتحاد الراعي والرعية على ما قوى حاميتهم في البر والبحر حتى هابتهم الامم واستولوا على ممالك كثيرة خارجة عن قسم اوربا ونالوا من نفوذ الكلمة في غير ممالكهم ما هو مشاهد وصاروا في التصرفات الدنيوية قدوة لغيرهم وما ذاك الا باجراء القوانين السياسية التي مدارها على ما تقتضيه الحرية المشروحة سابقا من حفظ حقوق الانسان في نفسه وعرضه وماله والاتحاد في جلب المصالح ودرء المفاسد بمراعاة العادات والامكنة والازمنة التي تعتبر شريعتنا اختلاف احكامها اعتبارا كليا ولتلك القوانين في الممالك الاوربا وية من الاحترام واستمرار النفوذ برعاية اهل الحل والعقد ما يحمي حقوق الرعية وحريتها ويؤمن الضعيف من بطش القوي ويدفع عن المظلوم سلطة الظالم مثل ما كان لامة الفرس التي طال ملكها ودام حديث عدلها الى الآن وشهد لبعض ملوكها بالعدل سيدنا الصادق صلى الله عليه وسلم ومثل ما كان لامة الرومان التي استولت على غالب جهات المعمور حتى كان يقال لها في ذلك الوقت كرسي ممالك الارض ومثل ما كان لامة اليونان التي لما استولى العدو على بعض بلدانهم وزمهم الخروج منها سألوا حكيما لهم أين تصلح السكنى فقال لهم في بلد تكون الشريعة

فيه أقوى من السلطان الى غير ذلك من الامم التي ما بلغت غاية الاستقامة الا باحترام قوانين احكامها المؤسسة على العدل السياسي كما ان عدم احترامها كان منشأ رجوعهم القهقرى ولا يتوهم ان ذلك بسبب بركة في شرائع الامم المذكورة اذ الواقع انها قوانين عقلية مبنية على مراعاة الوازع الدنيوي فاذا انضم الى ذلك وجود البركة والحرمة الالهية كما هو حال شريعتنا المطهرة كانت المخالفة معما تستعقبه من النكال الاخروي اجلب للانحطاط الدنيوي ومن تتبع تواريخ الامم المشار اليها وتواريخ الامة الاسلامية رأى ذلك عيانا

هذا وان الضرورة قد تدعو الى تفويض ادارة المملكة لشخص واحد مستبد لكن لغاية محدودة وبشروط عندهم معهودة وذلك ان من أصول السياسة المأثورة عن الامة الرومانية أن المملكة اذا اشتد الخطر عليها اما بكثرة الافساد الداخلي أو بظهور مخائل التغلب عليها من الخارجي وصعب حسم مواد ذلك بالاعمال القانونيه لمكان تعدد الانظار المتساوية وما عسى يقتضي الترجيح بينها من طول المفاوضة المفضي الى عدم قمع المفسدين ومدافعة المتسلط الاجنبي اوالى تأخير ذلك عن وقت الحاجة فعند ذلك يطلب مجلس السناتو من احد رئيسي الدولة الجمهورية ان يختار من اعيان رجال المملكة من يسميه باسم دكتتور اي مطلق التصرف تفوض اليه اداره المملكه بما يظهر له بمقتضي اجتهاده كعمل الحرب والصلح ونفي أو قتل من يراه من اهل الفساد والخيانة اوعقابه بأخذ المال اوغير ذلك مما يقتضيه الحال ولا يتوقف نفوذ حكمه على موافقة أحد الا في امر الجبايى فان اعماله فيها موقوفة على موافقة مجلس السناتو وكل من له مأمورية عسكرية أو سياسيه فهو ملزم بتنفيذ أوامره وكذلك سائر الاهالى ولا يتجاوز التفويض المذكور

المذكور ستة اشهر ولو كان السبب باقيا الا بتفويض جديد كما انه اذا ارتفع السبب قبل انتهاء المدة فان التفويض ينتهي وترجع الادارة الى قوانينها وعند خروج المفوض له تتوجه اليه المسؤلية اللازمة لكل من يخرج من خطة معتبرة عندهم فيطالب منه ببيان السبب الداعي الى ماتصرف به من قتل وحرب وصلح وأخذ مال ونحو ذلك بمحضر أهل رومية المجتمعين لذلك فان صوّبوا تعليله استوجب شكرهم وثناءهم على سيرته في موكب مخصوص وان كانت الاخرى يحكم عليه بما يناسب سوء تصرفه واكثر مايكون ذلك بالنفي من التخت أو اداء المال ثم ان الاوربا ويين صاروا في المدة الاخيرة يطلقون اسم الدكتتور على كل وال مطلق التصرف سواء كان محدودا بمدة أم لا كالجنرال كرومول بانكلترة ونابوليون الاول بفرنسا وغيرهما ممن كان استبداده من آثار حيرة تثور بالمملكه يشتهر فيها المشار اليه بمزيد الدراية والحزم فينصب نفسه منصب الدكتتور وتعرف به العامة بقصد اخماد الحيرة وتخليص المملكه من مواقع الخطر واستصلاح حالها بتهذيب جفاة الاهالي وتقويم اعوجاجهم لكنهم لايحصلون غالبا على هذا المقصود بل يتوصل المنتصب بذلك الى اغتنام الفرصة لاستمرار استبداده امّا لاستمرار اسباب الحيرة وضعفه عن ازالتها وأمّا لكون المنتصب أزالها بحسن تدبير وقع من الاهالي موقع الاعجاب حتى اكتسب بذلك مزيد احترام عندهم أسس عليه سلطته وايثار نفوذ ارادته على اجراء قوانين المملكه مرجحا بذلك حظ نفسه على المصالح العامة لكن ذلك مع مايفضي اليه من المضار الاستبدادية لاينكر أن المصير اليه واجب عند قيام سببه لاستبقاء راحة المملكه كما يشير

اليه قول الحكيم مونتسكيو الفرنساوى انا بمقتضى ما نسمعه من اعمال الامم التى كانت حاصلة على الحرية التامة نرى ان الحال قد يقتضى ارخاء الستر على الحرية ارخاء وقتيا قلت وحيث كان التفويض المشار اليه انما ساغ للضرورة وما أبيح للضرورة يتقدر بقدرها فلا جرم يجب الرجوع الى كشف حجب الحرية بعد زوال السبب هذا وقد قررنا فى هذه المقدمة من الادلة الناهضة الواضحة على ما فى التصرفات السياسية المضبوطة بالتنظيمات من المصالح العامة والخاصة التى يشهد العيان بآثارها الناجحة فى الممالك وما فى التصرفات السياسية الغير المضبوطة بها من المضار الفادحة ما تقربه عين النصوح المحب لخير الوطن وانى لا أزال أقول ان ترتيب التنظيمات المشار اليها من لوازم وقتنا هذا كما أقول صدعا بالحق ان كل متوظف لا يرى الاحتساب عليه فى وظيفته فهو عديم الامانة والنصيحه لدولته و وطنه ولو كان معتمدا فى ذلك على ما قد يجده فى نفسه من حب الانصاف لانه تسبب فيما يعقب الخراب بامتناعه من المراقبة والاحتساب حيث ان اكثر المتوظفين انما يباشر خطته على مقتضى شهواته ومصالحه الخصوصية مؤثرا لها على المصالح الوطنية العموميه فهب انه كان مجبولا على حب الانصاف فان غيره لا يفعل مثله الا بمراقبة الاحتساب ولانه لو كان منصفا فى الواقع ما ضره الاحتساب حتى يمتنع منه بل اللائق بحاله مزيد الحث عليه اذ به تظهر براءته ظهورا لا يحصل بدون ذلك وفيما أودعناه فى غضون هاته المقدمة للمستبصرين كفايه والتوفيق بيد الله المحمود فى كل بداءة ونهايه

(الخاتمة)

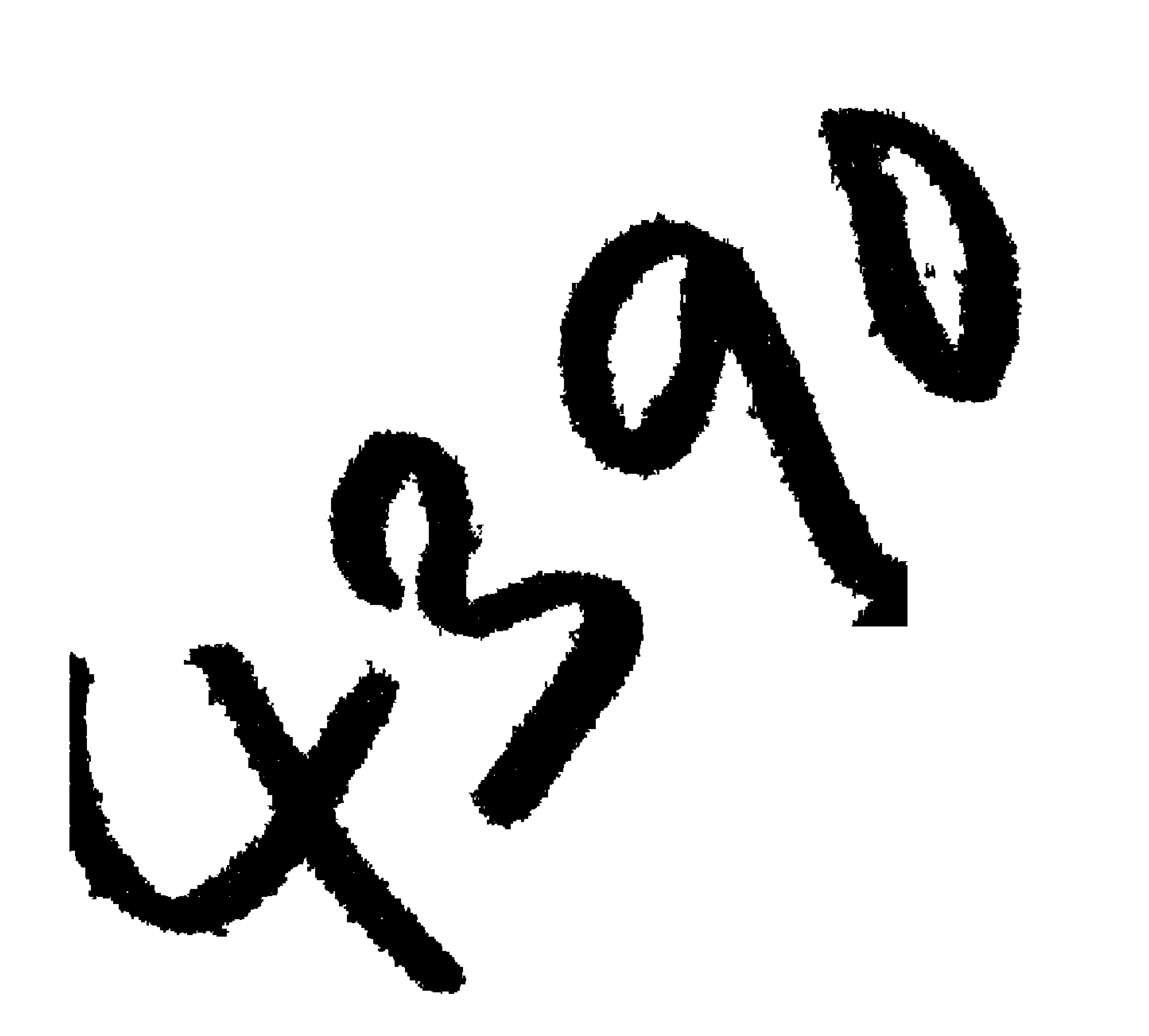
(الخاتمه)

اول جامع هذا الكتاب ألهمه الله الى الرشد والصواب هذا
تيسر لنا جمعه بحول الله من تصاريف الممالك الاسلاميه والاورباويه
مستعينين فى تهذيب ألفاظه ببعض أبناء الوطن والمظنون بمن رمقه
بعين الانصاف ان يرى فيه افادة كافية فى معرفة المهم من احوال تلك
الامم وان يغتفر فى جنب ذلك مالا يخلو عنه كلام مترجم من قلق
العبارة وعدم الانسجام سيما وغالب ما ترجمناه يشتمل على مدلولات
مستحدثة لم توضع لها ألفاظ عربيه حتى انا قد نلتجئ بذلك الى نقل اللفظ
بحاله اتكالا على اشتهاره ولو عند خصوص المستعملين لحوادث الوقت
ولا يمتنع أن يكون منشأ ذلك عدم اطلاعنا على الرديف العربى و بالجملة
فاغضاء ذوى العرفان مأمول لمثلنا ممن لم يحر له على موقف الاستهداف
الا القيام بواجب النصح لله ورسوله ولائمة المسلمين وعامتهم وبناء على
كون ذلك مصدر التأليف نعلن لمن عسى أن يعثر فيه على شئ من الهفوات
انا نرى له المزية علينا فى الارشاد الى اصلاحه بما يكون أعون فى استجلاب
تصحيحه مستوجبا بذلك ثنائنا ثم الثواب من رب العباد نجز هذا
التأليف باعانة الله تعالى عشية يوم الاثنين عاشر جمادى الاولى
سنة اربع وثمانين وماتين وألف

فا

ماضره الاحتساب الخاتمة الجديده)*
الحث عليه اذ به تظهر براءة ... المعارف ابواب الجنة وفيما
أودعناه فى غضون هاته المقدمة فى تسبيحك وحمدك والتوفيق
بيد الله المحمود فى كل بداءة ونهايه
وابه

الاقلام فى السطور * و بعد فيقول الفقير الى مولاه * المستمنح فضله وعطاه * سليم الياس حموى الدمشقى مولدا * المصرى وطنا وقطنا * لما رأيت مقدمة كتاب اقوم المسالك * فى احوال الممالك * الذى جمع فاوعى * واشتمل على مهمات الامور * ما لم نر لمثله جمعا * من اجل ما صنف * وابهى مأثور والف * جديرة ان تزدان بها المكاتب * وتكون تلاوتها للعموم كحتم الواجب * كيف لا وهى نفثه يراعة رب الحكم الحائز شرفى المجد والقلم * الشهير بفضله اشتهار الشمس فى رابعة النهار * والذى لا يدرك شأوه فى ذلك المضمار * صاحب الدولة والعطوفة خير الدين باشا الذى تفتخر به المعالى والرتب * و يرتفع به منار الفضل والادب * ولنا فيما تولاه من المناصب الرفيعة كالوزارة فى الدولة التونسيه والصدارة فى الدولة العليه دلائل * قال لسان حالها جاء الحق وزهق الباطل * وقد تم طبعها وزها فى قالب الحسن وضعها * فى مطبعتنا الكائنة فى ملك دمر يكر بجوار مجلس الصحة المشهورة بمطبعة جريدة الاسكندريه * حرسها الله تعالى من كل آفة وبليه * واذ كان لا يحتاج النهار الى دليل * اقتصرنا عن طبع ما جاءت به فرسان البلاغة من التقاريظ التى يعز لنظيرها المثيل كيف لا واولئك الفرسان ممن احتاطوا دائرة المعارف حول كل تليد وطارف حتى ... ت اليهم الاداب اعناقها * والقت اليهم المعارف مقاليدها * فلا بد ... ستنزلوا الشهب فى اقلامهم * وارتفع منا ... اعلامهم ... ق الوقت محلا نا جيدها بتلك التقا ر ... ثمة ... بده * نسأل الله تعالى ان ... فى الامكان * اذ ... فى المد ...


Lx390